



الطبعة الرابعة

ملتزم الطبع والنشر
دار الكتاب العربى بمصر.
محمد حلمى المنياوى

الطبعة الأولى	سنة ١٣٧٠ هـ	« ١٩٥١ م
الطبعة الثانية	سنة ١٣٧١ هـ	« ١٩٥٢ م
الطبعة الثالثة	سنة ١٣٧٣ هـ	« ١٩٥٤ م
الطبعة الرابعة	سنة ١٣٧٥ هـ	« ١٩٥٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

من حق العقيدة على الكتاب وعلى الناس أن تتناولها الأقلام الجادّة ، وأن تكثر فيها البحوث القيمة ، وأن تلقى من العناية ما يناسب جلال موضوعها .

وفى عصرنا هذا تصدر مطبوعات فوق الحصر لشَغْلِ الأعين والأذهان بالمسائل التافهة من لهْوِ الحياة ونَحْوِها ، وترف الحضارة ومجونها .

وهناك — لا ريب — كتب ضخمة تعالج حقائق العلم ومشكلات الوجود ، لكنها — للأسف — قَلَّما تتعرض بالاهتمام الواجب للإيمان بالله واليوم الآخر . وما يستتبعه هذا الإيمان من تصحيح نظرتنا للدنيا وتفهّم رسالتنا فيها . . ! !

ولو كان الكلام عن الله وما ينبغى له من وقار ، وعن لقائه المنتظر وما يتطلبه من استعداد ، وعن رسله الأكرمين وما يجب لهم من اتباع . . . لو كان ذلك من النوافل التى يسوِّغ للمرء أن يتكاسل عنها ويزَهِّد فيها ، لما كان علينا من بأس فى غَضِّ النظر عن « العقيدة » وبحوثها ! !

أمَا والأمر مقامرة خطرة النتيجة ، قد يربح الإنسان فيها حاضره ومستقبله ، وقد يخسرهما جميعاً . . فلا بد من التفكير العميق فى هذه المسألة ، وبذل الجهد فى الوصول إلى قرار تستريح إليه النفس .

فلننظر إذاً إلى الموضوع نظرة الإنسان العاقل إلى كل مشروع فيه هلاكه أو نجاته . فهو يلتفت إليه بكل مايملك من قوة وعزم ! !

* * *

وقد نشرنا للأستاذ محمد الغزالى كتباً شتى فى النقد والإصلاح العام ، حتى حسبه القراء قد تخصص فى مهاجمة الفساد السياسى والاقتصادى الذى ران بأوزاره على الشرق الإسلامى . وملأ ربوعه المنكودة بالركود والاضمحلال .

على أن هذا الاتجاه الجديد فى تقرير علوم العقيدة كما بيّنها القرآن الكريم وصوّرتها السُّنَّة المطهرة . هو فى الحقيقة عمل حاسم فى ميدان الإصلاح النفسى والاجتماعى والسياسى . .

فما استطاع الضَّلال أن يسود بلادنا إلا فى غيبة الإيمان الصحيح ! وما نستطيع الفكاك من آصاره إلا بإعادة الإيمان الصحيح إلى القلوب الفارغة ،

وإن الإنسان ليلمح الوثنية الأولى تطارد عقيدة التوحيد فى أكثر من ميدان .

وفى ميدان السياسة وحده انتصبت أصنام كثيرة ، قام من حولها السدنة يذكرون . يقدمون القرابين من حقوق الشعوب ومصالح الأفراد والجماعات .

حتى [illegible] يذكر فينبض عِرْقٌ عاطفةِ وَجَل .

وإذا ذكر اسم غيره خشعت قلوب ورجفت أعضاء ! !

وأنَّى نستقيم ذلك مع دين يجعل مَنْ على الأرض عبيداً أذلّين للواحد القهار . ويعتبر الحكام خدم المصلحة العامة .

وإذا ما تعنى منهم أحد . وأحاط نفسه بهالةٍ مقدسة مُزِّق قِناعه وكُشِفَتْ حقيقته . . .

والاستكانة للضيم تحت عنوان الرضا بالقضاء خطأ فاحش ، لاسبيل إلى تصحيحه إلا ببيان الصلة الحقة بين أفعال العباد وسنن الخالق فى كونه ؛ كما رسمتها الشريعة نفسها ، لا كما تتلقفها أهواء الجهّال . .

إن الأمة ظَمْأى إلى الإيمان ، والحضارة الحديثة لا تقدم لهذه الأمة إلا السراب الخادع أو الملح الأجاج .

أما نحن فَنَرْوِى العِطَاش من منابع الوحى النقىّ ؛ وذاك حسبنا .

وفى هذا الكتاب نقولٌ وقواعد وآراء ، نرجو أن يكون فى حَشْدِها على النحو الذى صَنع المؤلف ما يفتح الأفئدة . ويثير فيها مشاعر الإيمان بالله ، والاحترام الخالص لديه .

محمد حلمى المنياوى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه بحوث فى العقيدة دفعتنى إلى كتابتها قلة الرسائل التى تعنى بهذا اللون من علوم الدين وتعرضه فى أسلوب نتفق مع حاجة المسلمين المعاصرين !

وقد رأيت أن أسوق الأصول العلمية لعقيدة المسلم، فى نسق يخالف ما ألِفَ الناس قراءته من هذه الأصول فى مظانّها من ثقافتنا الدينية.

لا لأنى سآتى بجديد فى هذا الميدان. بل نزولا على منطق التجارب، وانتفاعاً بما اكتنف جوانب التاريخ الإسلامى من أحداث، وتوخّياً للسير فى هدى النصوص المجردة من الكتاب والسنة.

فالذى يقرأ شيئاً عن عقيدة المسلم فى العلم الموسوم « بعلم الكلام » أو « علم التوحيد »، لا يعوزه أن يسجل ملاحظات هامة عن المسائل التى خاض فيها العلماء، والمجادلات التى دارت بينهم، والنتائج التى تمخضت عنها مناظراتهم، وعن أثر ذلك كله فى إيمان العامة والخاصة جميعاً ! !

والذى آخذه على منهج البحث فى « علم الكلام » — فى حدود مادرستها من كتبه — أنه :

(١) نظرىٌّ بَحْت. ينظِّم المقدمات ويستخلص النتائج كما تصنع ذلك الآلات الحاسبة فى عصرنا هذا، أو الموازين التى تضبط ثقل الأجسام ثم تسجل الرقم وتقذف به للطالبين ! !.

كذلك سرت الاستدلالات فى هذا العلم الخطير. فتكلمت عن الله سبحانه وتعالى وعن صفاته الكريمة، وانتهت إلى حقائق جيدة، يستريح إليها العقل الحصيف.

ثم إن الإسلام فى تكوينه للعقيدة يخاطب القلب والعقل، ويستثير العاطفة والفكر، ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاظه للقُوَى الذهنية.

وقد كنت أرقب — عن كثب — ما تخلفه دروس التوحيد من كتبه المقررة. ثم كنت أجد فارقا [illegible] — لدى السامعين — بينها وبين شروح المعادلات الجبرية مثلا.

كلام ترويض للعقل مبتوت الصلة بالفؤاد. فكان الطالب يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم «لواجب الوجود». ولا يستشعر فى قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال. أو يختلج فى مداه عِرْقٌ من الرغبة أو الرهبة نحو من [illegible]، و[illegible] وتقواه.

[illegible]: وقد فزع العامة إلى علوم التصوف يستكملون منها ما فاتهم إدراكه فى علم الكلام. ولكن التصوف ميدان كثير المزالق، وشطحات المتصوفين فيه أكثر من سدادهم.

ولا شك أن هذه العلوم تعنى بعاطفة الحب الإلهى. وربط قلوب الناس بخالق السموات والأرض، إلا أن مخاطر الشغل به تجعلنا نتوجس منه.

وقد حاولت فى هذه الكتابة عن عقيدة المسلم أن أرطِّب جفاف التفكير العقلى بلمسات من مشاعر الحب. ولم أتكلف لذلك إلا أن أجعل نصوص الكتاب و[illegible] [illegible].

فلا يستكثرنَّ القارئ إيراد الشواهد منها ، فإن لذلك حكمة مقصودة ، تُعْرَفُ بعد مطالعتها فى سياقها .

(٢) وللظروف التى نشأ فيها « علم الكلام » أثر سيئ فى سرد حقائقه وصوغ دقائقه ، فإن جحيم السياسة ، وتطاحن الأحزاب المختلفة أرسل شُوَاظًا من الأحقاد والمهاترات على ما دار بين الفِرَقِ القديمة من جدل ، حول طائفة من الأحكام الإسلامية ، لا نزال إلى اليوم نشقى بها ، برغم القرون الطويلة التى مَرَّتْ عليها ! ! .

وفى ضجيج الخصومة السافرة يعسر البحث عن الحقيقة ! . ولو أمكن الوصول إليها ، فإنه يصعب الاقتناع بها ! .

ومن الغفلة أن نحسب تكوين العقيدة يتم فى مجلس مناظرة ، تُتَصَيَّدُ فيها النصوص ، وينشد فيها الْغَلَبُ ، ويُلْعَبُ فيها بالألفاظ ، ويُسْتَغَلُّ منطق « أرسطو » فى المخاتلة وإيقاع الخصم أمام العامة ! .

وعفا الله عن أجدادنا ، فقد أُولِعُوا بذلك ، وأعانهم عليه أن الدولة الإسلامية كانت سيدة العالم .

فلا بأس على رجالها أن يشتغلوا بالترف العقلى ، وأن يحولوا فراغهم من الجهاد فى سبيل الله إلى جهد فى هذا الميدان الخطِر ، فاشتغلوا بأنفسهم عن أعدائهم ، ثم ذهب الرجال وبقى الجدال . . . بقى إلى اليوم يهدد وحدة الأمة ويهز كيانها ! .

ومع أن الدولة الإسلامية جَثَتْ على قدميها أمام الصليبية الغازية ، واقترب الخطر على الإسلام من صميم عقائده وصميم دياره ، فإن الريح النَّتِنَةَ

لهذا الجدل ما تزال تهب من بعض الجماعات التي تحترف — للأسف الشديد — خدمة الإسلام ! .

ولا أحسب أمة تحتاج إلى وحدة الأفكار والمشاعر مثل هذه الأمة الإسلامية .

وإذا نشب خلاف على شيء مّا ، فإن تحويل هذا الخلاف من الأدمغة المفكرة إلى صفوف الأمة ، يُعَدُّ جريمة في حق الله ورسوله وجماعة المسلمين ...

قول الأستاذ الجليل المشير « أحمد عزت باشا » — معلقاً على الخلافات المتشعبة في علم الكلام — : « كانت هذه المناقشات في الأصل مما لا ينبغي أن يتعدى حدود المناظرات المنطقية والعلمية والفنية . ولكنا أقحمنا اسم الله عز وجل في مناقشاتنا التي لا معنى لها .

فحاول كل فريق منا إسناد الكفر والإلحاد إلى الفريق الآخر ، فقلبنا خلافنا إلى خصومة دينية لا تهدأ » .

وخلاف [illegible] والمعتزلة نشأ — في أصله — عن التعبير بأن العبد خالق فعله ، [illegible] وعن تصوّر الاستقلال التام في [illegible] .

[illegible] — صائحة تكون موضع [illegible] ، بل استجهاله [illegible] .

[illegible] معنى إسناد الظلم إلى الله [illegible] .

وقال معارضوهم : إنكم تنكرون عموم القدرة والإرادة الإلهية ، وهذا كفر . . .

نشأ أولاً هذا الخلاف ، ثم توسّع على مرور الزمن ، حتى تولدت منه مبادئ غريبة غير معقولة . . . » .

والولع بالخلاف سَرَى حتى ضمّ إلى العقائد أموراً مضحكة .

فهناك خلاف بين المعتزلة وأهل السُّنة على حقيقة السحر ، وعلى تكوُّن السحب (!) ، فأىُّ خَلْطٍ هذا ؟ .

و بين المسلمين اليوم نزاع يفصم وحدتهم حول ما دار بين علىّ بن أبى طالب وغيره من الصحابة فى مسائل الخلافة .

فهل على وجه الأرض أمة تجترّ ماضيها السحيق لتلوك منه خلافات قاسية كهذه الأمة ؟ .

ولماذا نقحم هذه الأمور إقحاماً فى شئون العقيدة ؟ .

ولماذا لا تبقى فى نطاق الذكريات التاريخية التى تدرس كأى تاريخ لتؤخذ منها العبرة فحسب ؟ .

وما صلة الإيمان بالله واليوم الآخر بحكمنا ، أن هذا أصاب . وهذا أخطأ ، والله يقول : « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[1] » .

وإنى لأقرأ فى الصحف الدينية اليوم نزاعاً بين أتباع السلف والخلف ـــ كـ

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٤ ، ١٤١

أسموا أنفسهم — وأسمع ألفاظ الكفر تتبادل كما تتبادل الكُرَةَ أرجلُ اللاعبين فَأهُزُّ رأسى عجباً ! .

إن أعراض المرض لا تزال تعرو الأمة المنهوكة ، وما تزال بحاجة إلى عناية الراشدين المخلصين من الأطباء الماهرين .

* * *

وقد استقرت رواسب هذا الخلاف الطائش فى أذهان العامة ، ثم سيطرت على سلوكهم بعد ما أخذوا أسوأ ما فيها ، ورفضوا أفضل ما فيها .

فإذا اختلف القدامى : هل العمل ضرورة للإيمان أو كمال فيه ؟ ترجح لدى العامة أنه كمال فقط .

فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف ترك العمل ! .

وإذا اختلف القدامى : هل للإنسان قدرة وإرادة يفعل بهما ويترك ؟ أو هو مقهور مكتوف اليدين ؟ ترجح لدى العامة أن المرء لا عزم له ولا حول ولا طول !

فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف سقوط الهمة وخَوَرَ العزيمة ! .

وإذا تجادل القدامى : هل للمسلم حق الالتجاء إلى الله دون وساطة الصالحين من الأحياء أو المقبورين ؟

ترجح لدى العامة أن المسلم لا يستغنى عن معونة الأولياء ، وأنه إذا ذهب يدعو ربه من دونهم فَالوَيْلُ له !

فيستفيد المجتمع من هذا الخلاف شيوع الشرك وضعف الصلة برب الأرض والسماء ! .

وهكذا لحقت بالمجتمع الإسلامى مجموعة خسائس لا شك فى أنها بعيدة الأثر فى حطه من ضعف وهوان .

وقد بذلت جهدى — وقد تصدَّيت لتصوير عقيدة المسلم — أن أتجنب أشواك هذا الخلاف ، فإذا استطعت طيَّه فى السياق المطرد طويته وتجاهلته ، وإذا اضطررت إلى خوضه عالجته على كُرْه ، وذكرت ما استبان لى أنه صواب وقد أستجهل الطرف المقابل ولا أكفره ، لأن الجهل الفاضح ـ كما ظهر لى ـ أساس كثير من المشكلات العلمية المبهمة .

وربما لَمحْتُ فى أخلاق بعض المجادلين عوجاً ، وفى أسلوبهم عنفاً ، فأوثر مغفرة هذا على مقابلة السيئة بمثلها ، لأننا أمة فقيرة جدًّا إلى التجمُّع والائتلاف .

فَلْنَدْفَعْ ثمن هذا من أعصابنا . والمرجع إلى الله .

(٣) وإذا كان علم التوحيد على النحو الذى وصفنا ، فإن كتبه التى تشيع بيننا الآن فشلت فى أداء رسالتها شكلا وموضوعا .

فمن ناحية الشكل لا معنى ألبتة لعرض علم مّا ، فى توزيع مضطرب بين مَتْنٍ وشرح وحاشية وتقرير ، وفى لغة ركيكة اللفظ . سقيمة الأداء . لغة تصوِّر سقوط البلاغة العربية على عهد الاحتلال التركى . . .

وتطور الأدب فى عصرنا هذا لا ينكر ! . وقد بلغ من تمكن المؤلفين والمتأدبين فى اللغة أن تناولوا الموضوعات التافهة فأخرجوها فى ألبسة زاهية . ووجهوا ألوف القراء — بسحر بيانهم — إلى ما يريدون ! .

فهل بقى الكلام فى العقائد وحدها حِكراً على هذا النمط الزرِى من الحواشى والمتون . . . ؟

على أننا إذا تغاضينا عن الشكل . وتعرضنا للجوهر بالنقد والتمحيص .

لا نلبث أن ندرك أن هذا الجانب الإلهي من الثقافة الإسلامية طَغَتْ عليه الفلسفات الغريبة التي نقلها السريان عن اليونان وغيرهم .

فإذا علوم العقيدة تتحول عن مجراها العتيد ، وإذا كتب التوحيد تزدحم باصطلاحات الفلاسفة وطرائق تفكيرهم .

ويبدو أن الأسلاف الباحثين في هذه الناحية من الإسلام قد فتنهم الإعجاب بما نقله إليهم التراجمة من ثمرات العقل اليوناني .

ولذلك خالطوها خلطا شديدا بتعاليم الدين . . .

ولست بصدد الحكم على قيمة هذا العمل وحكمته ، وإن كنا نرى دلالته على مدى الحرية التي منحها الإسلام أتباعه ، وعلى أن الدائرة التي يعمل فيها العقل الإسلامي تسع العالم أجمع ، فليست مغلقة على عصبية جنسية أو فكرة محلية . . .

غير أن عنصر العقيدة كادت تتيه وسط هذا الرُّكَام مِن النقول والأقيسة والمصطلحات ، فوجب تخليصها في نسق منفرد ! !

ثم [illegible] في الأفئدة لتثمر وتزدهر إلا بأسلوب الإسلام نفسه .

ومن العجب أنك تبحث في أمهات الكتب الكلامية وتطوى الصفحات تلو الصفحات ، فلا تكاد تعثر على آية أو حديث . إلا اقتباسات يسيرة ، تبدو كزهرات منفردة في الأرض السبخة . . .

[illegible] محت [illegible] هذه الكتب . ولا عليهم !

لكن ذلك لا يغنينا عن عرض عقيدة [illegible] حقائق تنصل عن قرب [illegible] : « والله يقول الحق وَهُوَ يَهدِى السَّبِيلَ » .

محمد الغزالي

(١)
الحقيقة الأولى

الله

هذا الاسم الكريم عَلَمٌ على الذات المقدسة التي نؤمن بها ونعمل لها، ونعرف أن منها حياتنا وإليها مصيرنا.

والله — تبارك وتعالى — أهل الحمد والمجد، وأهل التقوى والمغفرة، لا نحصي عليه ثناء، ولا نبلغ حقه توقيراً وإجلالا.

ولو أن البشر منذ كتب لهم تاريخ، وإلى أن تَهمَد لهم على ظهر الأرض حركة — نسوا الله وكفروا به، ما خدش ذلك شيئاً من جلاله، ولا نقص ذرة من سلطانه، ولا كفّ شعاعاً من ضيائه، ولا غض بريقاً من كبريائه.

فهو — سبحانه — أغنى بِحَوْله وَطَوْلِه، وأعظم بذاته وصفاته، وأوسع في ملكوته وجبروته من أن ينال منه وَهْمُ واهم، أو جَهْلُ جاهل!.

ولكن كم في عصر عكف على هواه وذهل عن أخراه. وتنكر لربه فإن مصير ذلك يقع على أم رأسه، ولن يضر الله شيئاً.

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ(1) ».

وجوده

وجود الله تعالى من البديهيات التي يدركها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بعقله، وليس من مسائل العلوم المعقدة. ولا من حقائق التفكير العويصة.

(1) سورة الحج آية 3، 4

ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء، واقتراب المسافة جداً قد يعطل الرؤية، ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد!.

«أَفِي اللّٰهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ[1]».

وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية.

فإنهم وإن عرفوا الله بطبيعتهم إلا أنهم أخطأوا في الإشراك به، والفهم عنه.

«هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ[2]».

«فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ[3]»

والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة. فهي تمسخها وتشرد بها، وتخلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العَذْب وتسيغ الأُجَاج.

وذلك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر والشرك! مع منافاة ذلك لمنطق العقل وضرورات الفكر وأصل الخلقة.

«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم..».

وقد اقترنت حضارة الغرب — التي تسود العالم اليوم — بنزوع حاد إلى المماراة في وجود الله، والنظر إلى الأديان جملة نظرة مقت. أو قبولها كمسكّنات اجتماعية لأنصارها والعاطفين عليها.

ولا شك أن المحنة التي يعانيها العالم الآن أزمة روحية. منشؤها كفره بالمثل العليا التي جاء بها الدين — من حق وإنصاف وسماح وإخاء.

(١) إبراهيم: ١٠ (٢) إبراهيم: ٥٢ (٣) محمد: ١٩

فلا نجاة له مما يرتكس فيه إلا بالعودة إلى هذه المثل ، يهتدى إليها بفطرته ، كما يهتدى سبيله الجنين فى ولادته ، والفَرْخُ من بَيْضَتِه !

ومتى هُدِيَ العالم إلى الفطرة ، هُدِيَ إلى الإسلام ، فإن الإسلام هو دين الفطرة .

ولا بأس من سوق طائفة من الدلائل التى تفتق للذهن الغافل منافذ يبصر بها ويلتفت منها وراءها .

(ا) إن الإنسان لم يخلق نفسه ، ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق الأرض التى يدرج فوقها ، ولا السماء التى يعيش تحتها .

والبشر الذين ادَّعَوْا الألوهية ، لم تكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك .

فمن المقطوع به أن وظيفة الخلق والإبراز من العدم ، لم ينتحلها لنفسه إنسان ولا حيوان ولا جماد .

ومن المقطوع به كذلك ، أن شيئا لا يحدث من تلقاء نفسه . فلم يبق [illegible]

[illegible] هذا الدليل .

[illegible] شىء [illegible] هُمُ الخالِقُونَ ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوٰتِ [illegible](١) .

و[illegible] الإبداع فى المجتمع الساذج الذى [illegible] .

« [illegible] ينظرون إلى الإبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ [illegible] الجبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ؟ وإلى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(٢) » .

(١) [illegible] : ٣٥ ، ٣٦ (٢) الغاشية : ١٧ — ٢٠

ويسمى هذا الدليل دليل الإبداع .

(ب) لو دخل المرء داراً ، فوجد بها غرفة مهيأة للطعام ، وأخرى للمنام ، وأخرى للنظافة ، وأخرى للضيافة ... الخ ، لجزم بأن هذا الترتيب لم يتم وحده . وأن هذا الإعداد النافع لابد قد نشأ عن تقدير وحكمة ، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل .

والناظر فى الكون وآفاقه ، والمادة وخصائصها . يعرف أنها محكومة بقوانين مضبوطة شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب . وأفادت منها الناس أجل الفوائد .

وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار العالم ، حاسم فى إبعاد كل شبهة توهم أنه وجد كيفما اتفق .

كلا . إن النظام الدقيق المختفى فى طوايا الذرة مطرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من أبعاد :

«تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا[١]» . «اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٢]»

وفى القرآن الكريم آيات شتى تقرر هذا الدليل . ويسمى دليل العناية .

(ج) هل فكرت فى هذه السيارات المضيئة — أعنى هذه الكواكب التى تخترق أعماق الجو — وهى تلتزم مداراً واحداً لا تنحرف عنه يمنة

(١) الفرقان : ٦١ ، ٦٢ (٢) الجاثية : ١٢ ، ١٣

ولا يساراً ، وتلتزم سرعة واحدة لاتبطىء فيها ولاتعجل . ثم نرتقبها فى موعدها المحسوب فلاتخلف عنه أبداً ؟!.

إن الكرة تنطلق من أقدام اللاعبين ثم لا تلبث أن تهوى بعد تحليق .

أما هذه الكرات الغليظة الحجم ، الحى منها والميت ، المضىء منها والمعتم فهى معلقة لا تسقط ، سائرة لا تقف . . ! كُلٌّ فى دارته لا يعدوها .

وقد يصطدم المشاة والركبان على أرضنا وهم أصحاب بصر وعقل .

أما هذه الكواكب التى تزحم الفضاء فإنها لا تزيغ ولا تصطدم :

« وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ . وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(١) » .

من الذى هيمن نظامها وأشرف على مدارها ؟ بل من الذى أمسك بأجرامها الضخمة ، ودفعها تجرى بهذه القوة الفائقة ؟

إنها لا ترتكز فى علوها إلا على دعائم القدرة ! ولا تطير إلا بأجنحة أعارها لها القدر الأعلى :

« إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُوراً(٢) » .

إنها كلمة جذرية فدلالتها العصية كدلالة حرف « س » على المجهول .

إنها رموز هي تصرخ باسم الله ، ولكن الصم لا يسمعون !

و ... دليل الحركة .

( ) لا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة .

(١) يس : ٣٨ — ٤٠ (٢) فاطر : ٤١

فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئاً يذكر : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(١) » .

وعناصر الكون الذى نعيش فيه كذلك ، لها بداية معروفة .

وعلماء الجيولوجيا يقدرون لها أعماراً محدودة . مهما طالت ، فقد كانت قبلها صفراً . . .

وكان هنالك ظن بأن المادة لا تفنى ، اعتمد عليه فريق من الناس فى القول بقدم العالم وما يتبع هذا القدم الموهوم من أباطيل .

على أن تفجير الذرة هدم هذا الظن . ولو لم يتم تفجيرها . ما قبلنا هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة . فإن المفتاح الذى يفتح على العالم أبواب الفناء ، ليس من الضرورى أن يضعه الله فى أيدى العصاه .

وعدم اهتداء الناس إلى ما يدمِّر مادة الكون ، لا يعنى أن مادة الكون غير قابلة للدمار والفناء .

ولم لا يكون ذلك حصانة أقامها القدر الأعلى . حتى يمنع العالم من الانتحار ؟ .

إنا جازمون بأن وجودنا محدث ، لأن تفكيرنا وإحساسنا يبديه تمثلات .

وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطوراً ذاتياً .

إنه إذا وقعت حادثة لا ندرى فاعلها . . . قيل : إن الفاعل مجهول . ولم يقل أحد قط : إنه ليس لها فاعل . فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه ؟ إننا لم نكن شيئاً فكنا .

فمن كوننا ؟ « قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(٢) » .

ويسمى هذا . دليل الحدوث .

---

(١) الإنسان : ١ (٢) الأنعام : ٩١

عقيدة الألوهية عند الفلاسفة والعلماء

معرفة الله سبحانه وتعالى مركوزة فى كل طبع . واسمها الكريم معروف فى كل لغة . واختلاف الأجناس والألسنة لم يصرف الأفئدة والأفكار عن هذه الحقيقة الواحدة .

بَيْدَ أن هذه المعرفة المتصلة برب العالمين ، [illegible] حد [illegible] الكمال وتمامها الراشدة ، ولم تبرأ من الأوهام وتبعد عن الأهواء ، إلا بعد ما تلقاها الناس مصفّاة من منبع الوحى . وسمعوا آياته تتلى من أفواه الأنبياء .

ولكن ذلك لم يمنع الكثيرين ممن لم يدخلوا فى نطاق الرسالات الأولى ، أو لم يبلغهم — على وجه صحيح — هداياتُ القرآن الكريم ، أن يفكروا فى الله من تلقاء أنفسهم . وأن يطلقوا عقولهم عنان البحث .

و[illegible] الإلهية حافلة بالكثير من هذه الأفكار ، كما أن علماء الكون فى [illegible] تكلموا عن الله فى حدود ما هداهم إليه البحث المجرد فى قوى الطبيعة وأسرارها وقوانينها .

والفلاسفة قد سمّوا الله ، الصانع . والعقل الأول ، وواجب الوجود .
[illegible] من الأسماء التى اصطلحوا عليها .

[illegible] تصورات فى الألوهية [illegible] فيها الحق بالباطل كما سنرى .

[illegible] صاحب عمل فى مادة .
[illegible] وجب . وأخطأ فى التفصيل المتعلقة به
[illegible] . وأحد [illegible] . ونكره منزه عن العرض

المستقيمة على النهج ، تتأدى بأصحابها — حتماً — إلى الله ، وتقفهم خاشعين أمام الشعور الغامر بعظمته وجلاله .

وإن من الغباوة والبلادة أن يظن السفهاء من الناس أن الإيمان وليد استغلاق الذهن . أو أن استبحار العلوم واتساع المعارف الإنسانية يخدش قاعدة الإيمان ، وهي الصلة بالإله الديان .

قال « هرشل » — من فلاسفة القرن الثامن عشر — : (إنه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة . وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضة يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما لزم للإنسان لعقد العلوم بعلائق الحكمة الخالق) .

وانظر إلى ما دوّن من آراء سقراط عن مبدأ أفلاطون :

« هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو الذي نراه فيه شيء مصادفة . بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية . وتلك الغاية متجهة إلى غاية أعلى منها . وهكذا ثم الوصول إلى غاية نهائية مفردة وحيدة ! .

[illegible] الحكيم في [illegible] : مخلوق . [illegible] وأجزل [illegible] من كافة واجبه : [illegible] من [illegible] يحدث [illegible] على [illegible] .

[illegible]

أولئك [illegible] من [illegible] .

[illegible] درجة لا يمكن [illegible] على [illegible] من وجود [illegible] .

لأن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع . الذى ينفذ حكمه كنفوذ الفكر فى الحال ، بدون أى خطأ .

وهو حاضر غائب — أى عالم قادر — ومع هذا ، فمن المستحيل إدراكه بالحواس ... فهو كالشمس التى تمس جميع الأبصار ، لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها » اهـ من تاريخ التصوف الأستاذ « محمد على عينى بك » .

وقد شرح « لابلاس » دليل الحركة الكونية ، وأبان قوة هذا الدليل فى حسم الشبهات التى يثيرها الجاحدون فقال :

« أما القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجزاء الموجودة فى المجموعة الشمسية وكثافتها ، وثبتت أقطار مداراتها ، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة ، ولكنها حكيمة ، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس ، والتوابع حول السيارات بأدق حساب ، بحيث أن هذا النظام المستمر إلى ماشاء الله لا يعروه خلل . . .

هذا النظام مستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه والذى يضمن استمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يعد ولا يحصى من المخاطر المحتملة ، لا يمكن أن يحمل على المصادفات فى نظر « لابلاس » إلا باحتمال واحد فى مائة تريليون .

وما قدرت[1] مائة تريليون ؟ إنه عدد من كلمتين ولكن لا يمكن أن يحصيه شخص إلا فى نحو خمسين ألف عام . يعد الأرقام ليلا ونهاراً على أن يعد فى كل دقيقة ١٥٠ عدد » .

(١) [illegible] كتاب « الدين والعلم » للمشير أحمد عزت باشا [illegible] .

وقال سبنسر :

« إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك . وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية واقتها . ولكنها نشرت أول الأمر ممزوجة بالأباطيل » وسبنسر هذا غير متدين .

وكتب « كميل فلامريون » فى كتاب « الله فى الطبيعة » : « إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات . فإن الله يتجلى لنا كروح دائم موجود فى حقيقة كل شىء .

ليس هو سلطاناً يحكم من فوق السموات ، بل نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات ! .

ليس مقيما فى جنة مكنظة بالصلحاء والملائكة ! ! بل إن الفضاء اللانهائى مملوء به .

فهو موجود مستقر فى كل نقطة من الفضاء وكل لحظة من الزمان ، أو بتعبير أصح : هو قيوم لا نهائى منزه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعقب .

ليس كلامى هذا من جملة عقائد ما وراء الطبيعة المشكوك فى صحتها . بل من النتائج القاطعة التى استنبطت من القواعد الثابتة لعلم . كنسبية الحركة وقدم القوانين .

إن النظام العام الحاكم فى الطبيعة . وآثار الحكمة المشهورة فى كل شىء ، المنتشرة كنور الفجر وضياء الشفق فى الخليقة العامة . ولاسيما الوحدة التى تتجلى فى قانون التطور الدائم ، تدل على أن القدرة الإلهية مطلقة هى الحافظة المستترة للكون ، هى المنظم الخبير ، هى المصدر الأصلى لكافة قوى الطبيعة وأشكالها ومظاهرها » .

والقائل فيلسوف ينكر اليهودية والنصرانية ، ولا يعرف الإسلام . ولكنه يعرف الله الواحد من إدمانه النظر فى العلوم والأكوان ، وأمثاله كثيرون .

وفكرة هذا العالم عن الألوهية تظهر فيها فلسفة وحدة الوجود .

وهى فلسفة نَدَّتْ عن الصواب ، وإن تعلق بها بعض القدامى من فلاسفة الهنود ، وسرت عَدْواها إلى التصوف الإسلامى ، فشَرَّدَتْ به عن الحق ، وعن تعاليم الإسلام .

وأفكار أولئك الباحثين ، لو أنها ضبطت بتعاليم الوحى ، ومشت فى هدى الشريعة ، لاستقامت مع ما ذكر القرآن الكريم عن الله عز وجل من صفات ، وما نسب إلى ذاته العظمى من نعوت الجلال والجمال . . ! !

وحسب أولئك — وإن لم يعرفوا الحق كاملا — أن لاح منه بريق فقروا وشكروا .

ولئن صدقوا ما عرفوا . فهم أهل للإيمان الصحيح الكامل لو أتيحت لهم آياته ويسرت لهم رسالاته . أى لو أتيحت لهم معرفة الإسلام الصحيح ، من [illegible] الكتاب والسنة .

ومع [illegible] التوحيد [illegible] المؤسسة لعقيدة الألوهية ، واستصحاب الشواهد [illegible] فى [illegible] . وفى [illegible] يحال من [illegible] .

وقد [illegible] هؤلاء . فهم [illegible] إلا الإنكار المجرد والعناد السمج [illegible] فى العصر [illegible] : « من الممكن [illegible] أجزاء [illegible] وحركتها إلى أصول بسيطة من [illegible] فى قوة خفية منحصرة » .

و يقول : « إن الإنسان محصول المادة وليست له خاصة فكرية على النحو الذى يصور الروحانيون » .

و يقول ماضياً — فى إنكار الروح ومصوراً العقل الإنسانى بصورة مادية — : « إن الكبد والكليتين تفرز مادة مرئية دون أن نعلم نحن بذلك .
أما الحركة الدماغية فلن تكون خارج إرادتنا و إدراكنا ، والدماغ يفرز قوة بدل المادة (!) . . . »

و يقول « بروسيه » — مؤيداً هذا التفسير المادى للروح والعقل — : « إن الذكاء والحساسية عمل من أعمال الأجهزة العصبية . كما أن تحويل المأكولات إلى دم يندفع فى العروق . عمل الأجهزة الهضمية والتنفسية . . ! »

وكتبت جريدة ضبيه مفتة ذكرت فيها أن « الفكر تركيب يشبه حمض فورميك ! والتفكير تابع للفوسفور ! .

والفضيلة والصداقة والشجاعة ما هى إلا تأثيرات كهربائية للأعصاب الإنسانية » .

هذه هى الصورة التى قدمها الملحدون للإنسانية ومعنوياتها ! وهذه هى أدلتهم على إنكار ما وراء المادة . وعلى نقض الإيمان بالله العلى الكبير .

وقد تنبه الناس نحوهم . ولا أدرى ماذا نقول عن منطق صحيح فى هذا اللغو القبيح ؟ .

ومتى كان التشكيك والغرض والتمويه أدلة محترمة ؟ .

إنه من المقطوع به عقلاً أن العدم لا يتحول إلى وجود ولا يخلق وجود .

فإذا قيل : إن هذا معقول فى حدائه فى نفسه . ولكن الحاجة ملحة فى وجوده إلى خالق . قيل : لا يجوز أن يكون ذلك من نفسه .

وإذا كانت حركة مرور فى مدينة — مثلاً — تتطلب فرقة من جنود

لتنظيمها وإلا اسرت الفوضى فى أرجائها ، فهل يستغرب القول بقدرة منظمة مُشرِفَة على الألوف المؤلفة من الكواكب السيارة فى الفضاء ؟

وهل يعتبر القول بأن المصادفات المحضة هى التى تتولى هذا التنظيم . . هل يعتبر إلا لغواً ومحواً ؟

ثم ما هذه السخافات الزاعمة بأن الفصائل والرذائل اهتزازات كهربائية للأعضاء والأجهزة الجثمانية ؟ . لأنه لا روح — كما يقولون !

يجيب « كميل فلامريون » — متهكما فيقول — : « ما معنى إفراز القوة : وما لا يفرز نمدة كيلومترات أو فراسخ ؟ »

ويقول المنير « أحمد عزت باشا » : « من حيث أنه لا روح ولا نفس ناطقة ، فمن الذى يشعر بما نفرزه الحركة الدماغية ؟ ومن الذى لا يشعر بها ؟ وما معنى كلمة « نحن » التى يستعملها ذلك المتكلم ؟ (بوخنز السابق) .

[illegible] — من قبيل إنطاق الحق له — ([illegible]) [illegible] [1] .

ثم [illegible] : [illegible] قوة لا تنفصل عن المادة — كما يقررون — فأين [illegible] .

[illegible] متحذلقين والمتنطعين ؛ [illegible] .

(١) [illegible] ، لأن هناك من يلاحق الحركة [illegible]

لا ريب فى وجود الله

نيو يورك — ر — استفتت مجلة « كوليرز » المعروفة ، عدداً كبيراً من علماء الذرة ، والفلك ، وعلم الأحياء « البيولوجيا » والرياضة .

« فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ، ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حد له .

ويقول الدكتور « راين » : إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل : أن فى الجسم البشرى روحاً أو جسماً آخر غير منظور .

وقال عالم آخر : إنه لا يشك فى أن الكائن الأعظم — وهو ما تسميه الأديان السماوية « الله » — هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود » .

* * *

نشرت « المصرى » هذا التلغراف الذى أذاعته « روتر » على العالم كله . وقد قرأته كغيرى ، وشعرت بموجة من السرور تغمرنى . لأن أولى العلم وأرباب البحث لمسوا — ولا أقول عرفوا — آثار الحقيقة العليا ، وبدأ إيمانهم بالله يرتكز على أساس من التجربة المادية والإحساس النفسى .

أتعرف ما هو الإلحاد ؟ أن يسفه المرء نفسه ، ويركب رأسه ، ويغمض عينيه عن كل ما حوله ؛ ثم يصدر الأحكام جزافاً ، لا تخضع لمنطق ، ولا يربطها فكر سليم .

وعندما جاء القرآن الكريم يأخذ بأيدى الناس إلى الحق المبين لم يكلفهم عسراً .

لم يرد أن [illegible] بهم فتح أبصارهم على آفاق السماء وفجاج الأرض وخواص الأشياء .

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . [1] » .

« أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ . . . [2] » .

« أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى . . . [3] » .

فإذا أرسل المرء نظراته الفاحصة يستقصي بها أنباء الوجود ويستكنه أسرار الحياة ، فسيرجع — بعد جولة قريبة — بهذه الحقيقة المشرقة اللامعة .

الحقيقة التي أجملتها الآية الكريمة « اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . قُلْ : أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ [4] » ؟.

إن الإلحاد تعبير ممسوخ في بلادنا ، يعرف قشوراً من العلم ، ويتعلق [illegible] .

تراه يتكلم عن الألوهية والدين والوحي فيلوي لسانه بعبارات مشحونة بالغرور والأذى .

[illegible] بقول الله : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ [5] » .

[illegible] الإلحاد ، نسوق إليهم نتائج [illegible] عن أصل الحياة .

(١) يونس : ١٠١ (٢) الأعراف : ١٨٥ (٣) الروم : ٨
(٤) الزمر : ٦٢ – ٦٤ (٥) الحج : ٨ .

لماذا كفروا ؟

قال الإمام الغزالى فى (الإحياء) : « اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا تقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام . وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ! فلا بد من بيان السبب فيه .

« وإنما قلنا . إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا نفهمه إلا بمثال ، وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط — مثلا — كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات ! .

فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة .

إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه . كل ذلك لا نعرفه .

وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها . وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته .

أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا ، فإنه جلي عندنا . ولكنا لا نرى بعيننا حياته وقدرته وإرادته .

فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ولا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته .

ولو نظرنا إلى كل ما في العالم سواه لم نعرف به صفته .

فما عليه إلا دليل واحد هو خياطته . وهو مع ذلك موجود جلي واضح .

« ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له — بالضرورة — كلُّ ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ، ونبات وشجر وحيوان ، وسماء وأرض وكوكب . وبر وبحر ، ونار وهواء ، وجوهر وعرض .

بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا . وجميع أطوارنا ، فى حركاتنا وسكناتنا .

وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا . ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة .

وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد . وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة ، بوجود خالقها ومدبرها ، ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لا حصر لها .

فإن كانت حياة الكاتب[1] ظاهرة عندنا ، وليس يشهد لها إلا شاهد واحد . وهو ما أحسسنا به من حركة يده .

فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور فى الوجود شىء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه ؟ وعلى عظمته وجلاله ؟

إذ كل ذرة فينا تنادى بلسان حالها : أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها .

يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا ، وأعصابنا

(١) فى المثال السابق

ومنابت شعورنا . وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة .

فإنا نعلم أنها لم تتألف بأنفسها ، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها .

ولكن لما لم يبق فى الوجود شىء مدرك ومحسوس . ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعروف له عظم ظهوره سبحانه ، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه .

ذلك وما نقصر عن فهمه عقولنا له سببان :

أحدهما : خفوته فى نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله .

وثانيهما : ما يتناهى وضوحه . . ! !

« إن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار : لا لخفاء النهار واستتاره ؛ لكن شدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف ، يبهره نور الشمس إذا أشرقت . فيكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره . فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة . وجمال الحضرة الإلهيّة فى نهاية الإشراق والاستنارة . وفى غاية الاستغراق والشمول . حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض .

فصار ظهوره سبب خفائه . فسبحان من احتجب بإشراق نوره . واختفى عن البصائر والأبصار ظهوره .

« ولا تعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور . فإن الأشياء تستبين بأضدادها . وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له . عسر إدراكه .

فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب . ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر .

ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإنا نعلم أنه عَرَضٌ من الأعراض ، يحدث فى الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس .

فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها ، لَكُنَّا نظن أنه لا هيئة فى الأجسام إلا ألوانها : وهى السواد والبياض وغيرهما .

فإنا لا نشاهد فى الأسود إلا السواد ، وفى الأبيض إلا البياض .

فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تَفْرِقَةً بين الحالين .

فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء ، واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب .

فعرفنا وجود النور بعدمه : وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد .

وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور .

هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به ندرك سائر المحسوسات .

فما هو ظاهر فى نفسه وهو مظهر لغيره .

انظر كيف تُصُوِّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده .

فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير . لانهدَمتِ السموات والأرض . وبطل الملك والملكوت . ولَأَدْرِكَ بذلك التفرقة بين الحالين .

«ولو كان بعض الأشياء موجوداً به . وبعضها موجوداً بغيره : لَأَدرِكَتِ التفرقة بين الشيئين فى الدلالة .

ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه .

فلا جرم أورثتْ شِدَّةُ الظهور خفاء ، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام»
انتهى ماجاء فى الإحياء .

هو الأول

وجود الله سبحانه وتعالى ممتد فى القدم ، بحيث لا يتصور قبله وجود قط ، وما دام كل وجود قد نشأ عنه . فالله تعالى أسبق منه ، ونحن لا نعرف عن الأول شيئاً ، إذْ عَهْدُنا بالوجود قد حدث بعد ميلادنا .

* * *

عن أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه : أن المشركين قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : انسُب لنا ربك ، فنزل : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ[1] » لأنه ليس شىء يولد إلا وسيموت ، وليس شىء يموت إلا سيورث وإن الله تعالى لا يموت ولا يورث .

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ[2] » . قال : لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شىء . . . .

إن أولئك المشركين نظروا إلى الألوهية بعقولهم القاصرة ، وقاسوا وجوده المطلق على وجودنا المحدود ، فتوهموا أن له أولا .

وليس الأمر كما يتوهمون . إن لوجودنا المادىّ أولا ، لأننا نحس بدايته وندركه عن يقين ، ونجزم باستحالة غيره .

أما الوجود الإلهى فقديم لا أول له .

(١) الإخلاص ١ — ٣ (٢) الإخلاص : ٤

وقد تمر بالخاطر هواجس تتساءل عن أسرار هذا الأزل الغامض على عقولنا ، وذلك من استشراف العقل إلى اكتناه ما يعجزه ، ولا يقدح ذلك في صحة الإيمان .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه : « أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال : أوَجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذلك صريح الإيمان » .

وفي رواية أخرى : « الحمد لله الذي ردَّ كيْدَهُ — الشيطان — [illegible] وسوسة » .

وعن [illegible] مسعود : « قالوا يا رسول الله : إن أحدنا لَيَجِدُ في نفسه ما لأنْ يحترق حتى يصير حممةً أو يخر من السماء إلى الأرض أحبُّ إليه من أن يتكلم به . قال : ذلك محض الإيمان » .

[illegible] الإنسان [illegible] وحدة كلها جدٌّ [illegible] ، لا يدرى مداه .

[illegible] الإنسان إدراك أعراض يسيرة في بيئته المحدودة ، أعراض [illegible] الحاضر ، أو أمسها القريب ، أو غدها الموشك .

وقد [illegible] من هذه الأعراض مدركة جملة من المعارف النافعة ...

ثم [illegible] فلا تستطيع حراكاً ولا إدراكاً . . .

وإذا [illegible] حدود قدرته العقلية في عالم الشهادة . فلا جرم أنه [illegible] في [illegible] عجز ، وعن فهمه قصر .

[illegible] سفينة قد يستطيع التجوال فيها ، فإذا بدا له أن يقذف بنفسه [illegible] يعود .

وعقلنا فى قوته المحدودة كبصرنا الذى لا يقرأ إلا على أشبار ، فإذا ابتعد الخط عنه مسافة لم يميز منه حرفا .

كذلك لا يستطيع العقل أن يدرك إلا فى دائرة وجود الضيقة : « وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا »[1] .

ومن ثَمَّ فنحن نؤمن بقدم الذات الإلهية وامتداد هذا القِدَم فى أغوار الأزل الذى لا نعرف كنهه .

... ذلك وطبيعة الوجود المحدث تقتضى البداية والنهاية . أما مَن وُجُودُه من ذاته فحقه أسمى من أن يسبقه أو يطرأ عليه عدم .

... والآخر

والله سبحانه باق أبداً ، إنه ليس جسماً فيموت . ولا مادة فتتحلل وتذوى ، إنه الدائم الثابت الذى يصير إليه كل شىء .

« كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[2] .

« وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرا »[3] .

وذو الوجود الخالد الباقى على الفناء قد يمنح الأخيار من عباده الخلود فى جنات نعيم .

وهذا الفيض الممنوح لا يعنى أن بشراً أصبح حقه وصف الباقى والآخر .

(١) الإسراء : ٨٥ (٢) القصص : ٨٨ (٣) الفرقان : ٥٨

فالأمر كما قلنا : إن وجود الله عز وجل واجب له من ذاته لا ينفك عنه أبداً .

أما ما عداه فهو صفر إن لم تدركه نعمة الوجود المفاض عليه من الخالق جل علاه .

حاجة العالم إلى الله

قد يشرف [illegible] والبناؤون على تشييد عمارة ضخمة ، ثم ينفضون [illegible] عنها ، ويبقى العمارة بعدهم أمداً بعيداً . قائمة الجدران مستوية الأركان .

إن هذه العمارة لم تخلق من عدم . والفعلة فيها لم يزيدوا أن ضموا حجراً [illegible] ، ثم انتهى عملهم إلى هذا الحد .

[illegible] يكون فسيحاً ، وتشييد سقفه المحفوظ ، وتمهيد أرضه وتبيينه [illegible] . فهو عمل آخر أساسه الإبداع من العمل المطلق .

وكما [illegible] في وجوده احتاج إلى ربه ، فهو في بقائه يحتاج إليه لحظة [illegible] .

ولا توجد ذرة في الأرض ولا في السماء تستمد وجودها من ذاتها . حتى [illegible] بنفسها . بل على العكس ، هذا الوجود المفاض عليها يتلاشى [illegible] مفيضه أن يحرمها منه ، مثلما يتقلص الظل إذا ذهب ما يبقيه .

لن يكون نهار إلا مع وجود الشمس ، ولن يكون عالم إلا مع وجود الله .

«وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى[١]» «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ[٢]» .

فالعقول وما يتردد فيها من أفكار ، والقلوب وما يتجدد فيهامن مشاعر ، والأجسام وما يندفق فيها من دماء ، وما يتحرك فيها من أجهزة وعضلات ، في كل بلد ، بل في كل قارة . منذ بدء الخلق وإلى قيام الساعة ، ما نعرف وما لا نعرف . إنما يقوم بقيام الله عليه ، ولو شاء تركه لأصبحنا صفراً ، ولما وجدنا وقتاً نفكر فيه بأننا فنينا ، لأننا سنكون فنينا فعلا .

إن الأرض التي تسير عليها بقدميك لا تمسك نفسها تحتك . فهي لا تشعر بك ، ثم هي لا تصنع شيئاً من الحبوب والفواكه التي تغذيك .

فأنى لها الخلق والإتقان وهي جمادة هامدة لا تحس ولا تعلم ؟

إن الإمداد الإلهي وحده ، هو الذي قام ويقوم بما ترى . قيامه لا تتوهم معه غفلة ولا تفريط ولا فتور . وإلا تهتكت واختل كل شيء ! !

الفارق بين وجودنا ووجود الله ، أن الله تبارك وتعالى وجوده واجب من ذاته .

أما نحن فليس لنا من ذواتنا شيء قط . إن منحنا عونه لوجود بقينا ما بقيت معونته ، وإلا اختفينا فلم يتمسك منا شيء .

ومن هنا نعرف أن لله صفات كثيرة ، توضح معنى كماله . نذكر منها ما يلي :

(١) النحل : ٦٠ (٢) فاطر : ١٥ ، ١٦

ليس كمثله شيء

مخالفة الذات الإلهية لغيرها من المحدثات ظاهرة . والبداهة تقضى بأن مرتبة المخلوق بينها وبين الخالق أمد بعيد . وأن الخالق كذلك لا يشبه شيئاً من خلقه ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته .

وقد وصف الله عز وجل نفسه بصفات كثيرة ، من الصعب إدراك حقيقتها على النحو الذى ندرك به أمورنا المعتادة ، بل هذا مستحيل !.

من أين لضعيف أن يعرف كنه العظيم !.

إن الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة الوجود المادى الذى يعيش فيه . فكيف يعرف ما وراءه من غيوب ؟

إذا قيل : إن الله يسمع ، فليس ذلك بأذن كآذاننا . أو يرى ، فليس ذلك بعين كأعيننا ، وإذا قيل : إنه بنى السماء ، فليس على النحو المألوف من أحوالنا . أو أنه فوق عباده ، فليس الوصف لجارحة كأعضائنا .

ومتى وقفنا على هذه الحقيقة ، فإن صفات المحدثين وأحوالهم لا يجوز أن تنسب إلى الله ، فهو — سبحانه وتعالى — غيرُ مخلوقاته .

وتلك الأمور ستبقى مستورة عن الأذهان الكليلة والعقول القاصرة .

وقد وردت فى الوحى الكريم كلمات عن الوجه واليدين والأعين والاستواء على العرش والنزول إلى السماء والقرب من العباد ... إلخ حاول كثير من المتكلمين استكناه دلالتها واستكشاف حقيقتها ، فلم يرجعوا إلا بالحيرة ، حتى قال قائلهم :

نهايةُ إقدام العقول عِقَالُ وآخرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ !

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا !

وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَا شُرُفَاتِهَا ... رِجَالٌ فَبَادُوا وَالْجِبَالُ جِبَالُ !

ولا غَرْوَ فإن البحث عبث فيما لا يملك المرء وسائل الخوض فيه .

إن الكيميائي قد يعرف خواص سائل أو غاز يقلبه تحت يده ويجرى عليه ما شاء من تجارب . فكيف يجوز للعباد أن يتدخلوا بالبحث النظرى فى شأن الألوهية لينكروا أو يثبتوا ؟ وشأن الألوهية بالنسبة إليهم عزيز المنال والحق يقول — فى كلامه عن ذاته وصفاته — : « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا »[1] .

وعلى ذلك فكل ما قطعنا بثبوته فى كتاب الله وسنة رسوله مما وصف الله به نفسه وأسنده إلى ذاته قبلناه على العين والرأس ، لا نتعسف فيه تأويلا ولا نقصد به تشبيها ولا تجسيما .

* * *

ولئن كنا نلتزم هذا السمت فى تقديس الذات وسائر الصفات ، فنحن لا نحب أن نتخذ منه ذريعة لتكفير من قصدوا إلى تنزيه الله عن طريق التأويل . وصرف الآيات الواردة إلى المجاز لا إلى الحقيقة .

فإن الذين أولوا فعلوا ذلك خشية أن تتلبس أمور الألوهية فى نفس من عداه

---

(١) آل عمران : ٧

اليهود والنصارى ، من تجسيم زرىّ ، وأحوال مضحكة .

فى التوراة تحكى أن صراعاً نشب بين الرب و يعقوب ، لم يفلت منه الرب إلا بصعوبة . و بعد ما فقده لعقوب لقبه المعروف « إسرائيل » ! ! وكلام الإنجيل عن الله يحكى بأنه أب رب أسرة من ولد ووالدة ! !

خروج المؤمن — عندنا — إلى المجاز ، قد يكون هناك ما يعتذر به عنه .

لكنا لاحظنا أن هذا التنزيه والتأويل والانصراف الدائم عن الحقيقة فى كل شىء حتى صار الإله لدى جمهور [illegible] . يجعل فكرتهم [illegible] عن الله لا هو فى السماء ولا فى الأرض ، ليست له يد ، ولا عين ، ولا وجه . لا يوصف بفرح ولا رحمة ولا ضحك ، ولا ولا ، مما وصف به نفسه .

وحجتهم فى أن العقل ما ورد به الشرع ، وألا نتكلف علم ما لم نطالب [illegible] عن الأشياء .

[illegible] أن يحكم العقل باستحالة شىء و بين أن يعلن عجزه عن فهم شىء . فالعقل يحكم بأن جمع النقيضين مستحيل .

والشىء — مثلا — لا يكون موجودا وغير موجود فى وقت واحد .

ولكن العقل الذى يحكم باستحالة هذا ، يعجز عن فهم حقيقة الضوء ، [illegible] ؟

وهذا العجز الظاهر لا ينفى حقيقة الضوء ، ولا ينفى وجودها .

فعدم معرفة شىء ، ليس علماً بعدم ذلك الشىء .

ما نعلم وما لا نعلم [1]

وقف مرة الأستاذ «آينشتاين» العالم الكبير عند درج صغير في أسفل مكتبته وقال: «إن نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم، كنسبة هذا الدرج إلى مكتبي»
ولو أنصف لقال: إنه أقل من هذه النسبة. فإنا لا نعلم أي شيء هو!

إنا نعيش في عالم مموه بالحقائق والقوى، ولا نعلم أي شيء!

وهذا في الدنيا التي نعيش فيها، ونلمسها ونزاول شئوننا فيها، فكيف بالعوالم الأخرى البعيدة عنا!

نقول: إن العالم مكون من ذرات، ونقول: إن الذرة مكونة من إلكترونات، أو من نواة وشحنة كهربائية سالبة وموجبة.

ونغير رأينا في تكوين الذرة ونعدل مرة في كل بضع سنوات.
ونستطيع فنعمل من الذرة قنابل ذرية، ونحن لا نعلم عن حقيقتها شيئا.

نقول: إن الأجسام تسقط بقانون الجاذبية، ونصبح نستعمل الكهرباء، ونسخر الكهرباء في توليد الحرارة والبرودة والحركة، وفي توليد الأمواج واستقبالها.

ولكن ما الكهرباء؟ لا نعلم عن حقيقتها شيئا. وإنما نعلم كيف نستخدمها.

والحياة نفسها لا نعرف حقيقتها، وإن كنا نحياها. وكل ما حولنا لا نعلم حقيقته وإنما نعرف أعراضه.

وبعبارة أخرى نعرف «كيف» ولا نعرف «ما» و«لماذا».

(١) للأستاذ أحمد أمين.

ما الحب ، ما الجمال ، ما القبح ، ما الحرية ، ما كل شيء معنوى ؟
كل هذه لا نعرف عن حقيقتها شيئاً .

وكل ما يستطيعه العقل ، أن يعرف صفاتها . ما الدين ، ما الخوف ، ما الأمل ، ما الشجاعة ، ما الفضيلة ، ما الرذيلة ؟ لا شيء غير الصفات .

قد نعلم أن اثنين واثنين أربعة ، ثم نعلم أجزاءها ومضاعفاتها .

ثم ننظر الأشياء فنعرف أعراضها ، ولا نعرفها .

وكل ما هو معجزة عند الناس من ضعفهم أن يعرف شيئاً عن الحقائق .

وكل شيء عرفه الإنسان — لو كان ذلك — أن يوجه سلوكه فى حياته حسب [illegible] الأشياء وحقائقها .

ولذلك نصف أصحاب مذهب « البَرَاجْمَاتِزم » إذ أنكروا قدرة العقل على معرفة الحقيقة ، وقصروه على معرفة الوسائل للغايات .

ولذلك يستطيعون أن يقولوا : إنهم وضعوا قوانينهم كقوانين [illegible] ، وهو [illegible] [illegible] . لا يزعمون شرح الحقائق ، ولكن شرح الأوصاف . وحتى هى شرح صفاتها الظاهرة ، لا صفاتها الباطنة .

إننا نقول : إن فلاناً يحبنى ، وفلاناً يكرهنى .

ولكن ما حقيقة الحب والكره ! لا نعرف .

ولكن معرفة الفن أسهل من معرفة العلم ، أو بعبارة أخرى أسهل من معرفة الحقيقة ، لأن الفن عمل ، والعلم فهم ، ونحن على العمل أقدر منا على فهم الحقائق .

ولهذا نجحت الحياة ، لأنها فن ، وصعبت معرفة الحقائق ، لأنها علم .

إننا نستطيع أن نعمل [illegible] إذ صنعت القطار على نمط صحيح لا يصطدم

ولا تخرج مجلاته، وتستطيع — بقدر الإمكان — أن تتقي الأحداث ،وتستطيع أن تترقب النجاح في عمل إذا سرت فيه سيراً حسناً ، لأن هذه كلها فن لا علم.

وحتى أنت — في هذه — عرضة للخطأ ، فقد يحدث ما لبس في الحسبان ، ويخرج القطار عن القضيب ، ويصطدم بجاموسة مرة — عرضاً — في الطريق ، وتصطدم سيارتك بما لم تقدر مطلقاً أنها تصطدم به ، فكيف الحقائق المجهولة ؟

إن كان ذلك كذلك ، فكيف نأمل أن نعرف العقل والنفس وحقيقة الشعور وما إلى ذلك ؟

كل ما نتحدث به عن هذه الأشياء ألفاظ جوفاء ، وتَشَدُّق سخيف ، لا حقيقة وراءه .

ولو أنصف مؤلفو المعاجم ، ومحاولو التعريفات ، لاكتَفَوا عن ذلك . لأنهم لا يصلون إلى حقيقته ، وإنما يدورون حول أنفسهم .

ولو دققت النظر في تعريفاتهم ، لوجدتها تعريفاً بالمثال : لا تعريفاً بالحقيقة .

وأكثر الناس يعيشون بعقيدتهم لا بعلمهم . وبخرافاتهم وأوهامهم لا بعقلهم . فكيف وعقلهم لا يدرك حقيقة ما حوله ؟

إن كان هذا حقاً ، فكيف يحاول العقل الإنساني البحث عن الله ؟

إنه يكون كقوم لم يعرفوا أرضهم ، فبحثوا عن مُريخ ، أو لم يعرفوا ما أسفلهم ، فحاولوا أن يعرفوا ما فوقهم .

ويعجبني ما ينسب إلى الإمام علي كرّمَ الله وجهه ، في الله تعالى : « إنه لا تدركه الشواهد ، ولا تحويه المشاهد ، ولا تراه النواظر ، ولا تحجبه السواتر ، لا بذي عِظَم تناهت به الغايات ، فعظّمته تجسيداً . ولا بذي كِبَر امتدت به النهايات فكبّرَته تجسيماً » .

كم يعجبني قول ابن أبي الحديد :

وَاللهِ لَا مُوسَى وَلَا عِيسَى المَسِيحُ وَلَا مُحَمَّدْ

عَلِمُوا وَلَا جِبْرِيلُ وَهْــوَ إِلَى مَحَلِّ القُدْسِ يَصْعَدْ

كَلَّا وَلَا النَّفْسُ البَسِــيطَةُ لَا ، وَلَا العَقْلُ المُجَرَّدْ

مِنْ كُنْهِ ذَاتِكَ غَيْرَ أَنَّــكَ وَاحِدِيُّ الذَّاتِ سَرْمَدْ

فَلْيَخْسَأِ الحُكَمَاءُ عَنْ حَرَمٍ لَهُ الأَفْلَاكُ تَسْجُدْ

مَنْ أَنْتَ يَا رِسْطُو وَمَنْ أَفْلَاطُ قَبْلَكَ يَا مُبَلَّدْ

وَمِنِ ابْنُ سِينَا حِينَ هَذَّبَ مَا بَنَيْتَ لَهُ وَشَيَّدْ

هَلْ أَنْتُمُ إِلَّا الفَرَاشُ رَأَى الشِّهَابَ وَقَدْ تَوَقَّدْ

فَدَنَا فَأَحْرَقَ نَفْسَــهُ وَلَوِ اهْتَدَى رُشْدًا لَأَبْعَدْ

* * *

وقوله أيضاً :

فِيكَ يَا أُعْجُوبَةَ الكَوْنِ غَــدَا الفِــكْرُ كَلِيلَا

أَنْتَ حَيَّرْتَ ذَوِي اللُّــبِّ وَبَلْبَلْتَ العُقُــولَا

كُلَّمَا أَقْدَمَ فِكْرِي فِيكَ شِــبْرًا فَرَّ مِيلَا

نَاكِصًا يَخْبِطُ فِي عَمْــيَاءَ لَا يَهْــدِي السَّبِيلَا

* * *

وهكذا نرى عند الأستاذ (أحمد أمين) تحديد حق للنطاق الذي يعمل فيه عقل الإنسان وحجة .

وهذه الحرب العنيفة التي شنها الإسلام لباحثين تجاوز هذا النطاق ،

فعدَوْا قدرهم، وخاضوا في بحوث لا طائل تحتها .. وبلغ بهم التيه في ميدان النظر أن تكلموا في ذات الله، هل صفاتها عينها؟ أو غيرها؟ أو لا عين ولا غير؟

ومضى بهم الجدل المحض إلى غير قرار!

وأي قرار في أمر لا يمكن أن تصل إليه الأفكار؟

إن هذا البحث لو كان في ذات الإنسان لكان عسيراً، فكيف يسمح به في ذات الله — جلا وعلا — ؟

إن علماء المسلمين الذين كتبوا في العقائد لم يقصدوا إلا الخير.

ولست أظن أن واحداً من الأولين والآخرين عمد إلى تشويه الدين أو مسخ آثاره في الأفئدة.

وقد أدّى الجدل ببعضهم إلى التقاذف بتهم مريبة.

وقد نبت في هذا العصر قوم يريدون إقحام العامة فيما لا يطيقون من بحوث. فيبلبلوا الأفكار في وقت نحتاج فيه إلى تجميع الشمل وتركيز القوة ضد الحضارة المادية التي تريد أن تطوي أعلام التوحيد وتستأصل شأفة الإسلام!

وما دام هناك من يعتنق مبدأ التأويل ويستمسك به، فليس من السائغ أن نرميه بالإفك ونخرجه من الملة كما يفعل الجهال.

وحسبنا أن نذكر الحق مجرداً. وأن نعرّف الناس جميعاً، أن الله عز وجل ليس كمثله شيء. ثم نطهر أنفسنا من الخلاف في الخصوصيات والأهواء.

الغنى المطلق

الله سبحانه وتعالى واسع غني. وليست سعة غناه راجعة إلى ما تمثله هذه العوالم من سماواته وأرضه وما حوت من معادن نفيسة وعناصر شتى.

ولا لأنه يملك عدداً لا يحصى من الجن والإنس والملائكة . لا . لا .

د عى الإهى أقعدُ من ذلك وأمْجَدْ ! .

س قد عمر ارجال عناً لأنه يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضه أو لأنه يحكم الألوف المؤلفة من الناس .

وقد ... صبح على شيء من الغنى ، إذ انهارت الدعائم التى ... عليه .

... كون ... كون ... عرف قدره ... كثرة ...

... الإهى ...

... لله عز وجل يستطيع ... على ذلك أجمع ، ولا ينقص غناه مطلق شئ ... !!

و ... نفسه ... عن خلقه ، مستكملا ... قداسته ، مستقلا فى ... جلاله

... : ... يحب ... تسبيح العباد من ... فى ... ، ... فى هذا الأمد الطويل ، لا يضنى ولا ... من ... .

... فى ... : ... عبادى ... أولكم وآخركم وإنسكم ... على ... رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى ... وآخركم ... وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ... من ملكى ...

... ووثقه ... لله عز وجل ، أن الله ، قائم بنفسه ، مستغن

. . . .

(٢)
الوحدة المطلقة

إنما الله إله واحد

ليس لهذا العالم إلا إله واحد ، يخضع له بالقهر والجبروت كل ما سواه :

« إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا »(1) .

وإذا استقرأنا من توهمهم الناس شركاء لله في ألوهيته ، لم نجد أحداً من هؤلاء الشركاء المزعومين ترشحه حالته ليكون في هذا الوجود شيئاً طائلا .

لقد عبد قوم أحجاراً قطعوها من سطح الأرض ، فهل يصح — في حكم عقل — أن حجرا من الأرض — بل الأرض كلها — تصلح لتكون إلها ؟!

وعبدوا صنفا من الحيوان وقدسوا نسله — كما يفعل الهندوك إلى اليوم فهل هذا العجل — ومجرد لحمه وشحمه — يصلح لمنصب الألوهية ! فما الذى يرفع قدره فى طبق الآكلين ؟!

إن الوثنيين سفهوا أنفسهم عندما هووا بها إلى هذا الدرك !

وقد ادعى بعض الناس الألوهية لنفسه ، كفرعون حاكم مصر ، وكهذا الذى حاج إبراهيم فى ربه « أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ »(2)

فهل هذا المغفل ، أن السعة المطلقة التى يستمتع بها والتى تجعله يقتل من يشاء ويبقي من يشاء ، ظن ذلك مسوغ الطموح لمنصب الألوهية .

(1) مريم : 93 – 95 .   (2) البقرة : 258 .

وهذا الظن يبقى فى رأس صاحبه حتى يقطعه جمهور الثوار، ويرمون به فى الأقذار.

وبعض الدهماء من اليهود والنصارى ضلوا فى فهم أنبيائهم ورفعوها إلى مصاف الآلهة، مع أن هؤلاء المرسلين ليسوا إلا عبيداً موهو بين، وقد كذبوا بهذا على أنفسهم وعلى الواقع.

فمن الحماقة أن نظن فى بشر — مهما علا شأنه — أنه خلق كوكباً من الكواكب..

ولماذا نذهب بعيداً؟ إن أحدهم لم يخلق ذباباً أو ما دونها، فكيف يُعَدُّ إلهاً من يعجز عن أى خلق؟.

بل إن جرثومة من آلاف الجراثيم التى تسكن فى بطن ذبابة، لو سلبت أحدهم صحته ما قدر على ردها!! فمن أين عد هذا ينسب إلى الألوهية؟

عيسى ابن مريم

لم تصادف خرافة من الرواج فى العالم مثل الخرافة التى تعد عيسى إلهاً هذا العالم — أو شريكاً فيه مع الله — !!.

وهذه الخرافة تتسع وتضيق حسب اختلاف الأهواء والآراء.

فتارة تعتبر هذا العالم خاضعاً لإشراف شركة مساهمة من الله ثم من عيسى وأمه والروح القدس.

وتارة تضيق فتعتبر هؤلاء الشركاء شعباً شتى لحقيقة واحدة، أو مظاهر متعددة لإله واحد، على نحو يعجز العقل عن تصوره..

وذلك كله شرود عن الصواب وضلال كبير:

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِن اللهَ هُوَ الْمسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ . . »[١] .

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِن اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا إِلٰهٌ وَاحِدٌ . . . »[٢] .

وعيسى بشر يأكل ويشرب ويقذف من جسمه بالفضلات الحيوانية ، فكيف تنفى عنه صفته الإنسانية ، أو يزعم له ما هو فوقها ؟

« مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ . كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ »[٣] .

ثم هو عبد يعنو وجهه لربه الأعلى ويذل في ساحته ، ويسمع — في صمت وإقرار — هذا التقرير الخطير « قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً . . . »[٤] ؟ ؟

وعيسى نفسه يعرف أنه وأمه عبدان فقيران لله . ويوم الحساب يقران بذلك ويستنكران غلوّ الغالين فيهما .

« أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ[٥] » « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ . . . ! ! »[٦] .

والواقع الذي يعلوه صوت البديهة : أنه من المستحيل جعل عيسى إلهاً يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ، ويدبر شئون البلاد والعباد ، وأمر السماء

(١) المائدة ٧٢ (٢) المائدة : ٧٣ (٣) المائدة : ٧٥
(٤) المائدة ١٧ (٥) ، (٦) المائدة : ١١٦ ، ١١٧

والأرض . . إلخ . لأنه فى حياته عبد ضعيف ، و بعد مماته رفات موارى فى حفرة من التراب .

ومؤلهو عيسى يشعرون بذلك جيداً .

ومن ثَمَّ فهم يلتمسون له القوة — التى تجعل منه إلهاً — من طبيعة أخرى غير طبيعته العاجزة كإنسان وذلك بالتحايل على إيجاد نسبة بينه و بين الله — سبحانه وتعالى — هى نسبة البنوة — كأنه ولىُّ عهد ! ! . وزين لهم هذا التخبطِ أن عيسى ولد من أم فقط .

والحق أن النسبة بين الله و بين خلقه كافَّة هى نسبة الموجد المتفضل بالإيجاد ، المختار فيه أتم اختيار . على عالم لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . و إن كل صامت وناطق فى هـذا العالم يدين لله بكينونته وهو طوعا أو كرهاً . يسبح بحمده و يذل لربوبيته ! !

والله سبحانه وتعالى قد يجعل بعض مخلوقاته أرضاً و بعضها سماء ، بعضها تراباً و بعضها ذهباً . بعضها نباتاً و بعضها حيواناً ، بعضها إنساً و بعضها جناً . .

فما على شىء من خلقه . فهو محض فضله ، وما حدد له وضعه فهو محض حكمته .

وقد يمنح بعض البشر والملائكة مواهب تميزهم عن أقرانهم ثم يختارون رسلا لعباده .

وكل ما يفعل ربك بحكمة . فإن ذلك لا يمس أصل النسبة المقررة بين الصانع وموجده العظيم .

إذ جعل المهندس بعض الحجر بيت [illegible] مختلفة فى [illegible] و بعضه

الآحر تسرفت تعلو فى الفضاء ، ظنت الأحجار العالية أنها قد تحولت مهندساً أو تشبه مهندس ؟

أى سخف هذا الذى يجعل بعض الخلق شركاء فى الألوهية ، لأنه منح فضل احترام ؟

وكيف مصور فى بديع السموات والأرض أن يكون والداً لتلك الأجساد التى ذرأها ؟ وما عيسى فى جانب الملكوت الضخم ؟

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون[1] » .

وما أبعد الألوهية عما يهرف به الجهلة من ولادة وبنوة واتصال ونسب (!) .

« لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار »[2] .

وإذا كانت ولادة عيسى من أم فقط ، ترشحه للألوهية — بصفة البنوة — فإن آدم أولى منه بها ، ثم سكان الملائكة المقربون أولى بذلك .

فهم من نور الأعلى ، والناس من الحمأ المسنون .

مغـــالطة

وقعت فى مذكرات الدكتور « شبلى شميل » كلمة لمواطن مسيحى ... يحاول أن يوفق بين الإسلام والنصرانية فى حقيقة المسيح بن مريم ! !

(١) الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧ (٢) الزمر : ٤

وقد بنى هذا الكاتب فكرته على أن كلا الديانتين تضمن حقائق مبهمة .

فإذا كان الغموض كيف أوصاف المسيح وعلاقته برب العالمين فى النصرانية ، فكم فى الإسلام من عيوب غامضة ! فهذه تلك . . ! ولا داعى لاعتبار التثليث معضلة تنافى التوحيد الواجب لله . . .

قال الكاتب : « جهل أكثر كتاب المسلمين عقيدة النصارى فى الإله الواحد الذى ليس بمادة ، كما جهل أكثر كتاب النصارى عقيدة المسلمين ،

ولكن لظهور الصعوبة فى فلسفة العقيدة النصرانية يقول النصارى : إن فى الدين شيئاً هو فوق العقل . ويعدون ذلك من مفاخرهم فى تدينهم .

فيظن المسلم أنهم يريدون بقولهم فوق العقل أنه غير معقول ، وليس هذا هو المراد .

بل المراد أن العقل لا يكاد يدركه .

وكان مثل هذا القول شائعاً ومعروفاً عند المسلمين أيضاً

ولكن بعض كتبهم فى هذه الأيام الجديدة قاموا ينادون بأن الدين الإسلامى وحده دين العقل ، ويفسرونه بأن العقل يدرك كل شيء فيه .

ولسنا ندرى كيف يدرك العقل أمور [illegible] الغيبي ، مثل [illegible] والعيش التى فى الجنة ، ومثل عالم الأرواح المجردة وعالم الملائكة

ولا نعرف كيف يستطيع أولئك العقلاء تفسير [illegible] موسى « [illegible] موسى [illegible] المقدس طوى »(١)

ى [illegible] . .

(١) صفحة ١١ ، ١٢

وأى عقل يدرك حقيقة نفخ الله فى فرج مريم ، كما جاء فى القرآن المجيد بنص هذه الآية :

« وَمَرْيَمَ ٱبْنَةَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا[1] » .

النصرانى يقول : الإله واحد كما يقول المسلم .

ثم يقول النصرانى : إن عيسى كلمة الله وروح الله وهكذا يقول المسلم أيضاً .

والنصرانى يقول : إن مريم العذراء حملت بعيسى الذى هو روح الله وكلمة منه من غير أن يمسها بشر . وهكذا يقول المسلم أيضاً .

[illegible] للمسلمين أن يبينوا الفرق أولا بين هذه التعابير وأن يفهموه جيداً قبل أن يحدثوا النصارى على التعبير بالأب والابن والروح القدس ، وقبل أن يسألوا عن هذه الفلسفة التى تبين أن هذه الكلمات الثلاث تدل على حقيقة واحدة ظهرت فى ثلاث مظاهر . وما [illegible] موسى عن القارىء ببعيد » .

هذا الكلام منطوى على مغالطة [illegible] ، وقد أوضحنا فى الفصل السابق أن هناك فرقاً بين ما يصعب على العقل إدراكه وبين ما يجزم العقل باستحالته .

ففى عالم الغيب والشهادة حقائق شتى نؤمن بوجودها ونجهل كنهها ، [illegible] لا نحس وجودها [illegible] .

وفى عالم الغيب والشهادة كذلك أمور نحكم بامتناعها ، ولا يمكن [illegible] مستحيلات معدومة .

[illegible] كقول [illegible] ليس مسألة غامضة ، [illegible] .

عرض واقعي وجدل نظري

باستقراء التاريخ وأحداثه ، لا نجد دعوى ذُوبَهُ لها من أحد يزعم أنه إلٰه مع الله

والذين فُهِمَ ذلك عنهم ، إما متهمون أبرياء ، كبعض الرسل والملائكة ، وإما مخلوقات لا تحس ولا تعقل ، كالأحجار والأبقار ، وإما حكام سفلة ، كفراعنة مصر وأشباههم . . .

وقد قام العلماء ببحوث جدلية ليثبتوا أنه ليس هناك مع الله إله آخر ، وإن كان الواقع العملي ينطق بذلك — فنحن في عالمنا المادي لم نجد هذا الآخر المزعوم ، وفيما وراء المادة لم يحاول هذا الآخر أن يتصل بنا .

والمرسلون قاطبة أكدوا — واحداً بعد الآخر — أنهم جاءوا من عند الله رب العالمين :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ[1] » .

فما الذي أخرس هذا الإله الآخر عن ذلك التحدي ، أسكوت موقن به من ظلم ؟ .

حقاً إن الملك كله لله ، وإن الآلهة الأخرى موهومة [illegible] عقول مريضة ، وتسمية لا مدلول لها .

(١) الأنبياء ٢٥

« أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ [illegible] ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ »(١) .

وأما الفروض التى ذكرها العلماء لنفى التعدد فى الألوهية ، فهى تقرير جملة من [illegible] التى لا [illegible] فى ضرورة توفرها لمن يجب اعتباره إلهاً .

[illegible] كان [illegible] الإله موجوداً مع الله فما هو موقفه منه ؟ بل — أولا — [illegible] هى [illegible] منه ؟ .

[illegible] كان [illegible] ومكانه [illegible] ، [illegible] كان أعلى منه فهو أحق منه [illegible] .

[illegible] كان مثله فما هى الحدود والفواصل بين عمليهما واختصاصيهما ؟ .

وكيف ينفذ أمرهما معاً فى الإحياء والإماتة ، والإشقاء والإسعاد ، [illegible] ذلك ؟ .

« [illegible] مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا [illegible] عَلَى [illegible] سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ »(٢) « لَوْ كَانَ [illegible] فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ »(٣) .

[illegible] فسد فى سمائه أو أرضه .

[illegible] وضعة صدورها عن إله [illegible] فرد صمد :

« [illegible] هُوَ [illegible] الرَّحِيمُ »(٤) .

[illegible]

(٢) المؤمنون . ٩١

[illegible]

(٤) البقرة : ١٦٣

إخلاص التوحيد

بعد الاستقراء التاريخي والاستعراض العقلي لمن نُحِلُوا وصف الألوهية زوراً ، نجزم بأنه لا إله إلا الله ، ونوقن بأنه لا شيء في العالم يرقى عن مستوى العبودية الذليلة لهذا الإله الواحد القهار ! .

غير أن البشر — وإن أحسوا بصوت الفطرة يصرخ في أعماق نفوسهم معلناً هذه الحقيقة الواحدة — يأبون إلا أن يَلبِسوا الحق بالباطل ، وأن يشوبوا هذا التوحيد الواضح بما يفسد صفاءه ، بل بما يجتث جذوره ! .

فهم يعترفون — برغم أنوفهم — أن الله هو الخالق الرازق . والمسيحيون المشركون بعيسى لا أظنهم يزعمون أن عيسى بنى أفقاً من السماء ، أو أرسى ركناً من الأرض ، أو رزق أمة من الناس ، أو أنبت حقلا من الحبوب أو حديقة من الفاكهة . . . كلا ، كلا ، فالله وحده رب هذا كله .

ومع هذا الاعتراف فهم لا يوحدون الله في العبادة ولا يتوجهون إليه بالطاعة ولا يتزلفون إليه بهذه العبادة التي تنبعث من فطرتهم ، بل يذهبون إلى غيره بكل هذا . . ! !

ومَنْ هذا الغير ؟ وكيف تنصرف إليه وجوه الخلق ؟ .

لقد اختلف المشركون في تبرير شركهم . [illegible] يدعو عبيد . و [illegible]

أولئك الذين اتخذوا إليهم من دون الله . [illegible] مفاتيح [illegible]

جاءوا إليهم نوصلهم إليه . .

وقالوا ما نستطيع [illegible] في حجر [illegible] شجرة أو ورقة . ولا [illegible]

نجحد تفرد الله [illegible] وسكت [illegible] خيره . . ! !

« وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى[1] » .

* * *

وهذا الصنيع الطائش لغو ومجون .

فليس لله بنت ولا بنون . وليس بين الله وبين عباده كلهم وسطاء ولا شفعاء ولا سماسرة .

وكل بشر — في الأولين والآخرين — له أن يقدم سؤاله إليه مباشرة .

ومن أذنب فله الحق كله أن يتصل بربه معتذراً مستغفراً ، لا يحمل توبته أحد من الناس .

والذي شرع لعباده الدين من بدء الخليقة ، وضّح لهم على لسان رسله هذه الحقيقة .

ولو أن لله ولداً أو شريكاً — سبحانه وتعالى عن هذا الإفك — لما [illegible] عبدته « قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ[2] » .

لكن هذا محض الكذب والدجل ، فكيف نتورط فيه ؟ .

والمؤسف أن البشر اختلقوا على الله هذه الفرية — فرية الشركاء والوسطاء — فكانت ضلالات تحدرت بهم من ظلمة إلى ظلمة حتى نسوا الله نفسه [illegible] شفعاء وسماسرة — وذكروا ما دونه من أصنام أو من [illegible] .

---

(١) الزمر ٣ (٢) الزخرف ٨١

« وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[1] » .

ومن هنا ظفر هؤلاء الشركاء بنصيب الأسد فى كل شىء ، فى العبادة والإخلاص ، والسؤال والنذر ، والحب والحماسة ، ولم يبق لله من ذلك شىء يذكر .

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هٰذَا لِلَّهِ ، بِزَعْمِهِمْ وَهٰذَا لِشُرَكَائِنَا . فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ ، فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[2] » .

وفى الحديث القدسى : « إِنِّي وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ فِي نَبَإٍ عَجِيبٍ . أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي ، وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ غَيْرِي » .

ولقد سَرَتْ هـذه اللوثة فى العقائد حتى كادت تفسد على الناس حياتهم ومصيرهم .

وحسب الدنيا ضلالاً أن تعمى عن إشراق التوحيد فى أنحاء الوجود .

وإنك لتمسى إذ ترى الوثنية الخرفة أجيالاً تزحم مناكب الأرض .

والمسيحية المشركة أقطاراً تسودها الأوهام .

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ[3] » .

وتتبوع هذا الشرك فى نظره هو خطوة مؤدية حتماً إلى جحود مبدأ الألوهية ، وعدم الإيمان به مطلقاً .

(١) الزمر ٤٥ (٢) الأنعام ١٣٦ (٣) يوسف ١٠٦

مقارنات بين الشركاء والعبيد

أراد الله عز وجل أن يعرّف سفهاء المشركين بأقدار الآلهة التى عبدوها من دون الله . فردد هذه المعبودات المظلومة بين صنفين :

إما أن تكون من جمادات ، فالعبيد أوسع قدرة من هذه الآلهة ، لأن لهم جوارح يستخدمونها فيما يشاءون .

فما هذه الأصنام المعبودة فماذا هى ؟ .

« أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟(١) » ليس لها من ذلك شىء .

وإما أن تكون هذه الآلهة المزعومة تملك ما ذكر من أدوات ومشاعر ، فماذا يمنحها ذلك من فضل ؟

سيكون الآلهة والعبيد سواء فى القوى الذاتية والمنزلة الكونية . فأى ألوهية إذن :

« إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٢) .

وليست طبيعة الإنسان أن يقف حاسراً قاصراً أمام ألوهية هى دونه أو هو فوقها : فإذا دعاها كانت بين أمرين . إما ألا تسمع وإما ألا تجيب .

« إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ

(١) الأعراف : ١٩٥ (٢) الأعراف : ١٩٤

الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »[١].

ولذلك فإن من النقائص أن تتعلق النفس البشرية بهذه الأوهام والأباطيل .

* * *

لقد كثر فى القرآن الكريم ضرب الأمثال ، وسَوْقُ الأدلة واستثارة الانتباه ، واستنهاض الكرامة الآدمية ، حتى تقوم من هذه الوهدة التى تذل فيها لمن هو دونها أو لمن هو مثلها .

وأفاض القرآن فى استقصائه المعانى التى تصون الوجه من دنس الشرك ، وفى مخاطبة العاطفة الإنسانية بأسلوب رائع فى رقته ، واضح فى غايته .

« أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ ؟ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ »[٢].

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ، وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ؟ »[٣].

والحق أن التوحيد روح الإسلام وجوهر عقيدته ومحور عباداته المتنوعة ، ومبدأ التوحيد يسرى فى تعاليمه كافة سريان الماء فى النبات أو الأعصاب فى البدن .

وقد وضح القرآن الكريم حقيقته وبسط فكرته ، وناقش ما قد يعرض له أو يعارضه ، حتى يعتبر التوحيد الإسلامى أصرح وأكمل ما مسه دين فى

(١) فاطر : ١٤ (٢) يوسف ٣٩ (٣) الزمر ٢٩

قلوب بنيه ، ودمغ البشر جميعاً بطابع العبودية لله وحده ، وانتزاع كل شارة لأى عبد يحاول الصعود فوق مستوى هذه العبودية ؛ ومحو كل شعور يتجه بنفسه إلى تقديس كائن مَّا — هنا أو هناك — كل ذلك من عناوين الإسلام الأولى وليس من إرشاداته الثانوية أبداً .

« إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ »[1].

وهو — وحده — هو الضار النافع ، الخافض الرافع : الذى يخذل أو ينصر ، ويعطى أو يمنع .

وليس لأحد بعده تعقيب على حكمه ؛ وليس من شأن مَلَك فى السماء أو نبى فى الأرض التدخل فى مشيئة الله .

فهى التى تحكم أبداً ، وإليها يحتكم أولاً وآخراً .

وأنبياء الله وأعداؤه لا يفرضون رغباتهم على الإرادة العليا .

« ولذلك فإن من إخلاص التوحيد أن نكل ما فوق قدرتنا وإرادتنا إلى الله وحده ، وأن نربط خوفنا ورجاءنا به » .

« أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ؟ »[2].

« قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؛ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ »[3].

(١) المائدة : ٧٢ (٢) الزمر : ٣٦ (٣) الزمر : ٣٨

للمؤمن قبلة واحدة يوليها وجهه . ويهبها فؤاده ، ويبثها نجواه وشكواه ، ويعرف على أشعتها طريقه فى ظلمات الحياة .

للمؤمن صلة عليا بالله ، يحدد — على أساسها — علاقاته بالناس .

وله عواطف تجيش بالأمن والقلق ، والسخط والرضا ، والحب والبغض ، والوحشة والأنس .

ومهما اضطربت فى نفسه هذه المشاعر المتنادة ، فإن ضوابط اليقين تحكمها ، وعرفانه بربه هو الذى ينقضها أو يبرمها .

وقد كان إمام الأنبياء يغرس هذه المعانى فى قلوب المؤمنين حين كان يدعو فى تهجده :

« اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ . وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ . وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ » .

هذه الضراعة الحارة الناهضة هى آية التوحيد الكامل .

إذا مشت عصارتها فى القلوب هزتها بالحياة والنماء ، وإذا فرغت الأنفس منها ذوت ، والتوت ، وخبطت فى عماء ما بعده عماء . . .

ونحن — فى الدين — نمر بتجارب شتى تكشف عن معادننا وخصائصنا كما تكشف التجارب فى معامل الكيمياء عن ميزات العناصر وشتى المخلفة ...

وما يعرف الإيمان والكفر ، وما نكتشف الإخلاص والنفاق ، وما نميز

الخبيث والطيب إلا فى هدى هذه التجارب التى تُكَفَّلَ القدر بإجرائها :
« وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[1] » .

* * *

وإذا رأت امرءً يحب غير الله أكثر مما يحب الله ، ويخاف العبد أكثر مما يخاف الرب ، ويتعلق قلبه بالناس أكثر مما يتعلق برب الناس ، ويصدر عنه نفع ، رصده أكثر مما يطلب ثواب الآخرة .

فإذا نزلت به نكبة كان تنكيره فى فلان قبل تنكيره فى الله ! وإذا أتاه خير كان حمده لفلان أسبق من شكره لله . . !

فاعلم أن هذا الشخص قد أشرك . .

ولئن كان بعض العلماء يقول : إن الشرك فى العمل غير الشرك فى الاعتقاد . وأن هذا شرك أصغر وذاك شرك أكبر .

فالحقيقة ، أن المسألة أصعب مما يتصورون ومما يصورون للعامة .

فالشرك عين حمئة قذرة ، إذا انفجرت فى قلب وبدأت تسيل قطرات رشحة ، يوشك أن تتحول سيلا كاسحاً ، ويومئذ لا يبقى فى القلب إيمان حق وينحول ما يسمونه شركا أصغر إلى عين الشرك الذى يعده الإسلام قمة الكفر :

إن الأمور صغيرها مما يهيج له العظيم

والإسلام يوم حارب اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، لم يحاربها لمعنى . ولم يكن بينه وبينها عداوة شخصية : إنما حاربها لأنها احتلت من قلوب المؤمنين مكانة السيد المنصرف من عبيده الأذلين .

(1) الأنبياء : ٣٥

فكل ما يصرف القلوب مثلها عن الله فهو صنم . وكل من تكون فى قلبه منزلة لشىء مّا غير الله ، مثل منزلة هذه الأصنام فى قلوب المشركين القدامى فهو — ولا كرامة — مثلهم ، يحسب منهم ويحشر معهم ولا عجب .

فالخمر تحرم لعينها . وإنما حرم المسكر من كل شراب .

والإيمان بالله لا تتفاوت حقيقته ، وإن اختلفت نواقضه على توالى الأيام .

توحيد العامة وما يعلوه من غبار

ينبغى لهذه الأمة أن تكون مثلا عالياً فى إسلام الوجه لله وإفراده بالنية والعمل .

بَيْدَ أننا نلحظ — آسفين — أن هناك مسالك شائعة بين الجماهير الغفيرة من المسلمين ، لها دلالتها الخطرة على فساد التفكير ، وضلال الاتجاه واضطراب المقصد .

ولا نحب أن نوارب فى الكشف عن هذه العلة . فإن أى خدش فى دعائم التوحيد معناه الخبل الذى يدرك موطن العقيدة الفكرية فى هذا الدين الحنيف .

إذ التوحيد فى الإسلام حقيقة وعنوان . وساحة وأركان . وبعث وهدف ، ومبدأ ونهاية .

ولسنا — كذلك — ممن يحب تَصَيُّد التهم للناس ، ورميهم بالشرك جزافاً . واستباحة حقوقهم ظلماً وعدواناً .

ولكننا أمام تصرفات توجب علينا أن نفتح العيون . والصحيح نخص . ومصرحة بنقيض الكتاب والسنة ، كما وجِدَ عنها أدنى انحراف .

لقد اهتمت حكومة انجلترا فى سبيل مكافحة الشيوعية بالحالة الدينية فى مصر !.

فكان مما طمأنها على إيمان المصريين (!) أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح أحمد البدوى بطنطا هذا العام .

والذين زاروا الضريح ليسوا مجهولين لدىّ ، فطالما أوفدت رسمياً لوعظهم ، فكنت أشهد من أعمالهم ما يستدعى الجلد بالسياط لا ما يستدعى الزجر بالكلام . وكثرتهم الساحقة لا تعرف عن فضائل الإسلام وأنظمته وآدابه شيئاً .

ولو دُعوا لواجب دينى صحيح لَفَرُّوا نافرين ؛ وإن كانوا أسرع إلى الخرافة من الفراش إلى النار !

وحسبك من معرفة حالهم : أنهم جاءوا الضريح المذكور للوفاء بالنذور والابتهال بالدعاء !

ولمن النذر ؟ ولمن الدعاء ؟ إنه أولا الأمر للسيد .

فإذا جادلت القوم قالوا : إنه لله عن طريق السيد البدوى .

وأكثر أولئك المغفلين غفلة يقول لك : نحن نعرف الله جيداً ، ونعرف أن أولياءه عبيده ، ولكنا نتقرب بهم إليه ، فهم أطهر منا نفساً وأعلى درجة .

وهذا الكلام — على فرض مطابقته لواقع القوم — غلط فى الإسلام .

فإن الله سبحانه وتعالى لم يطلب منا أن نجىء معنا بالآخرين ليحملوا عنا حسناتنا ، أو يستغفروا لنا زلاتنا .

« أم لهم شركاء شَرَعُوا لهم مِنَ الدِّينِ مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ؟ » [1] .

(١) شورى ٢١

بل المعروف من بديهيات الإسلام الأولى ، أن الطلب ووسيلته جميعاً ، يجب أن يكونا من الله « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »[١] .

(إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ) .

أليس من المضحك أن نستنجد بقوم يطلبون لأنفسهم النجدة . وأن نتوسل بمن يطلب كل وسيلة ليستفيد خيراً أو يستدفع شراً ؟

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ »[٢] .

* * *

إن المسلمين لما طال عليهم الأمد نسوا الحق .

والمرء قد يعذر إذا ذهل عن شأن تافه ، أو فاته استصحاب شيء هين . أما أن يذهل عن كيانه وإيمانه فهنا الطامة .

وأحسب أن القرآن الكريم كان يقصد في التنديد بهذا اللون من إفساد التوحيد عندما قال :

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ ؟ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ... »[٣] .

(١) الفاتحة : ٥ (٢) الإسراء : ٥٧ (٣) الفرقان : ١٧ ، ١٨

أجل لقد نسوا الذكر، وما قام عليه الذكر من توحيد شامل .

وليس يغني في الدفاع عن أولئك الجهلة من العوام أنهم يعرفون الله ، ويعرفون أنه وحده مجيب كل سؤال ، وباعث كل فضل ! وأن من دونه لا يملكون من ذلك شيئاً .

فإن هذه المعرفة لا تصح ولا تقبل إلا إذا صحبها إفراد الله بالدعاء والتوجُّه والإخلاص . فإن المشركين المتقدمين كانوا يعرفون الله كذلك .

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ »[1] .

ومع أنهم يقولون « الله » بصراحة وجلاء فلم يحسبوا بهذا القول مؤمنين .

لأن الإيمان — إذا عرفت الله حقاً — ألا تعرف غيره فيما هو من شئونه .

ولذلك يستطرد القرآن في مخاطبة هؤلاء « . . . فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ . كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[2] » .

ثم هم هؤلاء يشدون الرحال إلى قبور تضم رفات بعض الناس . ويقدمون إليهم النذور والحاجات والأدعية إلى من يظنونهم أبواباً لله ، ويرتكبون في حق الإسلام منكرات شنيعة .

(١) (٢) يونس ٣١ — ٣٣

ومهما قلبنا عملهم هذا من جميع وجوهه فلن نجد فيه ما يطمئنّ إليه ضمير المؤمن أبداً .

ومحبة الصالحين وبغض الفاسدين من شعائر الإسلام حقّاً .

ومظاهر الحب والبغض معروفة . . هي مصادقة للأحياء أو منافرة ، واستغفار للموتى أو لعنة .

وأين من عواطف الحب والبغض هذا الذى يصنعه المسلمون اليوم ؟ .

إن الواحد منهم قد يصادق أفسق الناس وقد يقطع والديه — وهما أحياء — ثم تراه مُشمِّراً مُجِدّاً فى الذهاب إلى قبر من قبور الصالحين : لا لِيَدْعوَ له ويطلب من الله أن يرحم ساكن هذا القبر ؛ بل ليسأل صاحب القبر من حاجات الدنيا والآخرة ما هو مضطر إليه . ذلك ضلال مبين .

وبناء المعابد على قبور الصالحين تقليد قديم ، وفى ذكر القرآن ما يدل على شيوعه فى الأمم السابقة .

* * *

وفى قصة أهل الكهف نسمع قولة الرجل :

« فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا »[1] .

ويظهر أن اتخاذ المساجد على قبور الكبار تقليد . ولكن المحصور فى أمره [illegible] دلالة مقررة .

(١) الكهف : ٢١

غير أن البشر سَفِهُوا أنفسهم ، فالأحجار التى نحتوها للعظماء عبدوها ، أو — على حد تعبيرهم — اتخذوها إلى الله زلفى .

والمعابد التى أقاموها على قبور الصالحين قدسوها وسلكوها مسلك الأصنام فى الشرك .

فلما جاء الإسلام أعلن على هذين المظهرين من مظاهر الوثنية حرباً شعواء ، وشدد تشديداً ظاهراً فى محق هذه المساخر المنافقة .

وقد روى كيف أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل علىّ بن أبى طالب وأمره أن يسوّى بالأرض كل قبر وأن يهدم كل صنم .

فجعل الأضرحة العالية والأصنام المنصوبة سواء فى الضلالة .

ومن قول النبى صلى الله عليه وسلم — فى البيان عن سفاهة القدامى وفى التحذير من متابعتهم — : « لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلَا لَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، إِنِّى أَنْهَاكُمْ عَنْ هٰذَا » .

وكان يرفع خُمْرة عن وجهه فى مرض الموت و يكرر هذا المعنى .

وكان قد خشى شراً مما يقع بعده فدعا الله :

« اللهم لا تجعلْ قَبْرِى مِنْ بَعْدِى وَثَنًا يُعْبَدُ » .

ومع كثرة الملابسات التى حصلت فى الإسلام دون الوقوع فى هذا المحظور ، فقد أقبل المسلمون على بناء المساجد فوق قبور الصالحين . وتنافسوا فى تشييد الأضرحة ، حتى أصبحت تبنى على أسماء لا مسميات لها ، بل قد بنيت على أوهام وحكايات خرافات .

ومع ذلك فهى مزارات مشهورة معمورة . تُقْصَدُ لتفريج الكرب ، وشفاء المرضى ، وتهوين الصِّعاب ! ! .

* * *

وأحب ألّا أُثِيرَ فتنة عمياء بهدم هذه الأضرحة .

فإن النبى صلى الله عليه وسلم امتنع عن هدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم ، لأن العرب كانوا حديثى عهد بشرك .

وجماهير العامة الآن ينبغى أن تساق سوقاً رفيقاً إلى حقائق الإسلام حتى تنصرف — فى هدوء — عن التوجه إلى هذه الأضرحة وشَدِّ الرحال إلى ما بها من جثث

وإخلاص العلم وأسلوبه فى الدعوة . عليهما معول كبير فى تمحيص العقيدة مما عَلِقَ بها من شوائب وعلل .

وقد تكون لدى البعض شبه فى معنى التوسل .

فلنفهم أولئك القاصرين أن التوسل فى دين الله ، إنما هو بالإيمان الحق والعمل الصالح . وقد جاء فى السنة .

« اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله الذى لا إله إلا هو : الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

فهذا توسل بالإيمان بذات الله .

وجاء — كذلك — توسل بالعمل الصالح فى حديث الثلاثة الذين آواهم الغار .

وجاء توسل بمعنى دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب .

ودعاء المسلم للمسلم مطلوب على أية حال .

ولا نعرف فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله توسلا بالأشخاص مهما علت منزلتهم — سواء كانوا أحياء أو أمواتاً — على هذا النحو الذى أطبق عليه العامة وحسبوه من صميم الدين ، ودافعوا عنه بحرارة وعنف ضد المنكرين والمستغربين .

حول توحيد العامة

جرى [illegible] لأموات ، حسنة الخصال من طالب أديب [illegible] فيه حجج [illegible] الوسيلة ويسردها على النحو الآتى :

(١) جمهور الناس عصاة ، والله إنما يتقبل من المتقين .

فلو ذهب الإنسان إلى ربه وهو موقر بالسيئات لم يجب له سؤلا ولم يستحق له فضلا .

ومن ثمة فعلى الإنسان أن يبحث عن وسطة مقبولة كولى صالح مثلا .

(٢) لا يسوغ القول إن هذا شرك لأن النية هى الحكم على الأعمال والمتوسلون لا ينوون شركاً أو يرضوا به .

(٣) الصحابة والتابعون والأئمة جميعاً كانوا يتوسلون إلى الله بالأنبياء والأولياء . وقد توسل عمر بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم .

(٤) [illegible] الكتاب عن قول الله فى جدار الغلامين اليتيمين «وكان أبوهما صالحا»(١) .

أليس فى ذلك ما يفيد أن بركة الأموات تتعدى إلى الأحياء ؟

(١) [illegible]

وفى قوله لنبيه: « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ (١) » .

أليس فى الآية ما ينص على التوسل ؟

وجاءتنا رسالة من أزهرى : يقول فيها : إن أحد العلماء الرسميين يقول إن التوسل بأصحاب القبور واجب ، فإن لصاحب القبر تأثيراً أقوى من تأثير الحى ، ولا حرج فى ذلك ما دام المتوسل يعتقد أن الله هو الفاعل .

ويقول : إن الآيات التى استشهدنا بها على نفى هذه المزاعم نزلت فى المشركين خاصة ، وأن الرسول أمر الأعمى أن يتوسل به إلى الله فرد عليه بصره .. الخ .

* * *

هذه هى الجهة الشائنة التى تعلق بها طائفة من الناس وبنوا عليها مسائل طائشة ، عكّرتْ رونق التوحيد الخالص . وردّت كثيراً من المسلمين إلى جاهلية طامسة مهلكة .

ونحن نغالب السآمة التى تعترينا كلما خضنا فى هذا الحديث وسطرنا فيه حرفاً .

فإن جدل [illegible] وضوح حق [illegible] الحجج [illegible] أن يحمل الناس عليه حملا .

وإليك البيان حسب ما سبق سرده من شبهات .

[illegible] أن العاصى [illegible] مستمرة [illegible] يستصحب أحد [illegible] فى [illegible] الإسلام [illegible] .

(١) [illegible]

إن إبليس دعا ربه مباشرة وأجيب .

« قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ[1] » .

والمشركون دَعَوُا الله مباشرة وأجيبوا .

« دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ[2] » .

فهل عصاة المسلمين يحرمون من حق أخذه أبليس وجنوده ؟

إن أي مسلم يقع في خطأ فعليه أن يجأر بالدعاء إلى الله على عجل ، من غير توسيط نبي ، ولا ولي ، ولا إنسان ، ولا شيطان .

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ . وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ[3] » .

ثم إن الرجل إذا كان بحالة لا يقبل منه دعاء معها ، فلن يقبل فيه دعاء غيره له . ولو كان سيد الأنبياء .

ألا ترى كيف رُفِضَ استغفار الرسول لعبد الله بن أبيّ ؟

فأمام المسلم المعتدد فيه — بل عليه — أن يدعو الله ولا ينظر في هذا الضرب من العبادة إلى مخلوق أبدا . . . ؟

وصحيح أن إجابة الدعاء تقتضى الإخلاص والتقوى .

ولكن ما صلة ذلك بما نحن فيه ؟

(١) الحجر : ٣٦ — ٣٨ (٢) يونس : ٢٢ — ٢٣ (٣) آل عمران : ١٣٥

أتظن أن الرجل إذا فقد الحرارة والصدق والتُّقى يذهب إلى ميت أو حى ليجد لديه العوض عما فقده ؟

هذا زعم باطل ، وليس فى دين الله ما يؤيده ؛ بل إن دين الله ضده .

* * *

والقول بأن العمل لا ينظر إليه ، وإنما تعتبر النية المصاحبة له ، غير صحيح فالعمل المقبول — ديناً — يجب أن تتوفر فيه — أولا — النية الصالحة ، وثانياً الصورة المشروعة .

وفقدان العمل لأحد هذين الركنين يبطله .

فالعمل المتفق ظاهره مع الشرع إذا كان صاحبه مرائياً أو منافقاً محبط أجره .

والقصد الصالح إذا لم يجر فى الطريق الذى رسمه الدين فلا قيمة له ولا يلتفت إليه .

والتشريعات الوضعية لا تكترث بحسن النية عند ارتكاب محظور ، وترى أن الجهل بالقانون لا يمنع من تطبيق القانون . وذلك سداً للاحتيال وحماية للحقيقة .

فهل يكون دين الله أقل حرمة من هذه التشريعات ؟

ولماذا نستحى من وصف القبوريين بالشرك ، مع أن الرسول وصف المرائين به ؟ فقال : « الرياء شرك » ..

إن واجب العالم المسلم أن يرمق هذه التوسلات النابية باستنكار ، ويبذل جهده فى تعليم ذويها طريق الحق ، لا أن يفرغ وسعه فى التمحل والاعتذار !

ولست ممن يحب تكفير الناس لأهون الأسباب . ولكن حرام أن ندع الجهل يفتك بالعقائد ونحن شهود .

أية جريمة يرتكبها الطبيب إذا هو طَمْأَنَ المصدور ومنع عنه الدواء ، وأوهمه أنه سليم معافى ؟ إن ذلك لا يجوز .

* * *

أما القول بأن الصحابة كانوا يتوسلون إلى الله بأشخاص الأحياء أو الأموات فمنكر قبيح .

وما يروى من شعر منسوب إلى الإمام الشافعي فمنحول لا أصل له .

وقد ذكرنا — نحن — أن دعاء الإنسان لنفسه ولغيره مطلوب .

وقد جاء ذلك في القرآن على لسان النبيين والصالحين .

فمن دعاء إبراهيم :

« رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ[1] » .

ومن أدعية نوح :

« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ[2] » .

« وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ[3] » .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو بعضنا للبعض بظهر الغيب .

ومن هذا القبيل وفي حدود تلك الدائرة من استعطاف العبيد لله وتوسلهم باسترحامه واستغفاره ، طلب عمر من العباس أن يدعو الله للمسلمين فدعا العباس وكان المسلمون حوله يؤمنون .

(١) إبراهيم : ٤١ (٢) نوح : ٢٨ (٣) الحشر : ١٠

بَيّنَ الزبير بن بكار فى الأنساب صفة ما دعا به العباس فقال : إن العباس لما استسقى به عمر قال :

اللَّهُمَّ لَمْ يَنزِلْ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ وَلَا يُكْشَفُ إِلَّا بِتَوْبَةٍ وَقَدْ تَوَجَّهَ بِى الْقَوْمُ إِلَيْكَ لِمَكَانِى مِنْ نَبِيِّكَ ، وَهذِهِ أَيْدِينَا إِلَيْكَ بِالذُّنُوبِ ، وَنَوَاصِينَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ ، فَاسْقِنَا الْغَيْثَ .

وليس ذلك مقصوراً على أن يدعو من نتوسم فيهم الصلاح من نظن بهم التقصير فهذا خطأ ، بل الأمر أعم .

وقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمر أن يدعو له .

وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام جمهور الأمة أن تدعو له .

أو لسنا نصلى عليه كما أمر الله ، وكما أمر رسول الله ؟

فما صلة ذلك بالتوسل على هذا النحو المجنون الذى سقط فيه العامة ، وجاراهم عليه الكسالى والمرتزقة والقاصرون من أدعياء العلم ؟

* * *

ولست أدرى ما علاقة التوسل بالآية الكريمة : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا[1] » .

إن الآية تفيد أن صلاح الآباء يمتد نفعه فى الذرية . كما أن فسادهم ينتقل خطره إليهم :

---

(١) الكهف : ٨٢

« وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللهَ . . . »(١) .

فالصالحون بعد موتهم قد يظهر فى أعقابهم أثر من بركة استقامتهم . وقول : « قد » لأن للوراثة قوانين سنها رب الوجود الأعلى ولا تعرف [illegible] .

وقد كان إبراهيم من نسل رجل كافر ، وكان لنوح ابن عنيد الضلال .

وفيه قوله — فى ذرية نوح وإبراهيم — : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ »(٢) .

ومن المنتسبين إلى الأسرة النبوية فى هذا العصر من أساءوا إلى الإسلام والعروبة أشنع الإساءة .

فإن كان السائل قصد أن هؤلاء هم أصنام العصر الحديث الذين يتوسل بهم المتوسلون ، فقد كفروا بهم وآمنا بالله وحده

والحسين لم يدفع عن نفسه وهو حى ، فكيف يدفع عن غيره وهو ميت ؟

وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ . . . »(٣) .

ليس تصريحاً ولا تلميحاً إلى جواز التوسل

ولكنه حقيقة أن المجىء للغفران باستغفار الرسول وذلك — بداهة — فى [illegible] حياته لا بعد موت

والصوفية تتضح فى هذا الموضع إن صدقوا فيها فهى أحوال توقف [illegible]

(١) النساء : [illegible]　　(٢) الصافات : ١١٣　　(٣) النساء : ٦٤

ومصادر التشريع معروفة .

ولم نعرف من مصادر التشريع أن فلانا الصالح رأى فى منامه كذا وكذا أو أن فلانا المجذوب خُيِّل إليه فى أثناء زيارته للروضة النبوية كيت وكيت

ولقد كان ابن عمر — بما فاض فى قلبه من حب الرسول يتصرف تصرفات خاصة ، فكان فى سفره ينزل حيث نزل الرسول ، ويقعد حيث قضى حاجته ولو لم تكن له حاجة .

واعتبر العلماء هذا كله عاطفة لابن عمر وحده لا يُلْزَمُ بها أحد ، ولا توصف بأنها شرع .

فإذا كان بعض الناس يحكى أمورا عن محبته للرسول فى قبره ، وأنه سلم فسمع الرد ثم حظى بتقبيل اليد ! ! ! فهو بين حالتين .

إما أن يكون كاذبا فلا قيمة لكلامه .

وإما أن يكون مجذوبا تخيل ما حدث ولا قيمة لكلامه كذلك . . .

ونحن لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا [illegible] لهذه الحكايات .

ثم ذلك الذى يوجب التوسل ويرى أن [illegible] أقوى من الحى فهو رجل محجوب !

وزعمه بانتفاء الشرك مادام [illegible] لاعتقاد أن الفاعل هو الله كلام فارغ .

وقد ثبت أن المشركين القدماء كانوا يعرفون أن الفاعل هو الله . وأن وسيلتهم كان من دون الله . [illegible] ليقربونا إلى الله زلفى (١) . وأن [illegible] هو على [illegible] محقوق [illegible] :

(١) الزمر : ٣

« تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[1] » .

وهناك عشرات الآيات تؤكد هذا المعنى .

سيقول بعض الناس : إن القدماء كانوا يعبدون .

أما عوام اليوم فهم يدعون ويسألون فقط ، وشتان بين عبادة الجاهليين وتوسل المحدثين بأولياء الله .

ونقول : هذه مغالطة ، فالسؤال والدعاء — بنص القرآن والسنة — عبادة محضة :

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[2] » .

وفي الحديث : « الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ » .

فلماذا نتوجه إلى البشر بما هو من خصائص الألوهية ؟ ؟

وإذا وقع الجهال في تلك الخطايا بغباوتهم فلماذا لا نسارع إلى إنقاذهم منها ، بدل تزوير الفتاوى لهم ؟ ، وقد تذكر في هذا المجال قصة الأعمى الذي توسل إلى الله بنبيه ليرد إليه بصره .

ومع أن القياس مع الفارق — لو صحت القصة — فهذا الأعمى دعا الله ، ونحن نرى من يدعون غيره .

إلا أن القصة ليست من قسم الحديث الصحيح .

ولا يحتج بالآثار الضعيفة في العقائد والأحكام لا يقبل من صاحبه .

ومثل هذه الرواية قد تروج عند الوعظ بفضائل الأعمال .

* * *

(١) الشعراء : ٩٧ ، ٩٨ (٢) غافر : ٦٠

وآيات القرآن ينظر فيها إلى عموم اللفظ لا إلى خصوص السبب .

وقد حرم الله الشرك على العرب فهو على غيرهم حرام .

فالقول بأن الآيات نزلت في أهل الجاهلية وحدهم جهالة لا نأبه لقائلها ولا نقيم لها اعتبارا .

رزقنا الله صدق التوحيد ، وأحيانا وأماتنا عليه .

جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم : « الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ الذَّرِّ عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاء . وَأَدْنَاهُ أَنْ تُحِبَّ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْجَوْرِ ، وَأَنْ تُبْغِضَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعَدْلِ . وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ وَالْبُغْضُ ؟ »

ثم تلا : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[1] .

يعني أن إخلاص التوحيد يقتضى محبة العدل وكراهية الظلم .

فإذا أحب الإنسان جائراً وكره عادلا فقد أشرك ! !

فإذا كان حس الإسلام مرهفاً إلى هذا الحد في تمحيص القلوب ونقد اتجاهاتها الخفية ، فكيف يسوغ أن نأتي إلى رجل يجأر بالدعاء لغير الله ويخاف ويرجو غير الله . ثم نقول له : لا بأس عليك .

إن موقف العالم المسلم في هذه القضية ليس موقف المحامي الذي يدافع عن المجرم فيقف ساعة أو أكثر يزيف التهمة ويؤول القانون !! بل موقف المدافع عن معالم الإسلام .

فإذا كان لا يعاقب المتهم لأنه جاهل — كما يقولون — فليعلمه دين الله ؛ ولا يتركه نهب الشياطين .

(١) آل عمران : ٣١

(٣)

الكمال الأعلى

القـــدرة

العالم وما فيه من سكون وحركة ، أثر لقدرة الله سبحانه وتعالى . وليست لشيء مّا ، قدرة ذاتية يستمدها من طبيعته المجردة .

فإذا رأيت البذور تشق التربة وتنمو رويداً رويداً لتستوى على سوقها فذلك بقدرة الله .

وإذا رأيت الأمواج تلطم الشطآن ، رائحة غادية لا تهدأ حتى تثور ، فذلك بقدرة الله .

وإذا رأيت القاطرات أو الطائرات تنهب الفضاء وتطوى الأبعاد وتحمل الأثقال فذلك بقدرة الله .

وإذا رأيت البشر يموج بعضهم فى بعض ، وينفعلون بالحب والبغض والفرح والحزن ، ويضطربون عاملين ، أو يهدأون نائمين ، فذلك بقدرة الله .

وسواء شعرت أو لم تشعر ، فنبضات قلبك فى حناياك ، وسريان دمك فى عروقك ، وكمون الحس فى أعصابك ، وتجدد الحياة فى خلاياك ، وانسكاب الإفرازات من غددك ذلك كله بقدرة الله . !

لا تحسبن شيئاً فى الكون قادراً بنفسه .

فلئن القدرة أبدعته أولا من عدم ، فقد أودعت فيه من أسرارها ، وبثت فيه من آثارها ما يدل عليها .

وبعض الجاحدين من عبدة الطبيعة يردون ما يقع تحت أبصارهم من هذه المدلائل الدهرية إلى مجهول محض ، أو قوى كامنة فى المواد والعناصر المختلفة .

وهذا تخريف شائن ، وتسفيه للعقل ، ومغالطة للواقع .

إن النور المتولد عن انتشار الكهرباء فى الأسلاك ، والحركة الناشئة عن امتداد الأبخرة فى المواسير ، والحديد المرتفع فى الجو ، نتيجة تغيير المراوح الدائرة لمقادير الضغط — فى الطائرة — كل أولئك لا يرفع قدر عنصر من العناصر المخلوقة فيهبه مرتبة الوجود المستقل ، فضلا عن الإيجاد الرائع !

لماذا يطلب منا أن نظن فى مواد التربة أنها — بقدرتها — خلقت النبات ؟

ولو كان ذلك حقاً فما الذى يمنع التربة أن تكون إلهاً ؟ .

ولو كانت العناصر جميعاً بهذه المثابة مع حركاتها وسكونها ، فأى خَبْطٍ نقع فيه نتيجة هذا العرض الأحمق ؟ .

أليس أقصر طريق نصل به إلى الحق أن ننظر إلى العالم كله ، من أرضه لسمائه ، على أنه صنع القدرة العليا . وأن كل ما نجدد فيه إنما يقع تحت إشراف القدرة وهيمنتها ؟ .

من المؤسف أن تكون السِّمة الغالبة على كافة العلوم الطبيعية أنها تقوم على البحث المجرد فى مادة الوجود ، وتعرف حقيقة العلاقات والتطورات والروابط بين شتى العناصر .

وقلَّما تلتفت إلى شىء بعد ذلك . إذا وقفت على نتائج معينة فى موضوع بحثها .

وتنتهى أغلب هذه العلوم بمن يدرسونها إلى علم جيد بالمخلوقات . وجهل مطْبقٍ بخالقها ، لأنه لا ترد إليه إشارة ما فى غضون البحوث الكثيرة المتشعبة

وهذه — لا ريب — خيانة علمية . فإن دراسة هذا الكون العظيم

تنفذ إلى صميم الفكر الحر بأشعة من الهدى والإيمان ، وتجعل الإنسان ينطلع — ملء الفؤاد — بعواطف الرهبة والرغبة — إلى هذا الخالق العظيم .

وهذه البحوث المجردة نشعر بآثار القدرة الرائعة فيما نتناوله من نواحي الطبيعة . غير أنها تظل خبيئة تحت أسماء مبهمة . وسندرج المتعلم بإجراء الاكتشاف والتجارب ثم تسعفه بتكوين النتائج .

أما لا نفك من وراء هذه الحجب المتدفقة إلى عظمة الله جل جلاله وأمر لا تكثرت له كثير من عوامل السكون والحياة .

وهكذا تظل بحوثهم مبتورة ، لأنها تنقصها الحلقـــة المفقودة بين الخلق والخالق .

من ذلك كله نعلم أن الله قدير على كل شيء ، وأنه قوىّ متين ، وأنه لا يؤوده خلق ولا أمر .

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا»[1] .

والقدرة في مجالها الواسع لا يعييها شيء ألبتة ، وآثارها التي نشهدها تدل على طاقة لا تقف عند حدود .

وليس معنى ذلك بداهة أن تخرج القدرة على منطقها .

فيقال — مثلا — : إنها لا تستطيع قلب الحقائق !

وقد كان الدكتور «زكي مبارك» سخيفاً ، ولعله كان « مسطولا »

(١) فاطر : ٤٤

يوم كتب في (البلاغ) : إن الله لا يستطيع إخراجي من ملكه ، وإن الله لا يستطيع الجمع بين النقيضين ..

والجنون فنون ! .

الإرادة

والله — سبحانه وتعالى — فيما خلق وفيما يخلق ، وفيما دبّر ويدبر به شئون العباد — كان يصوغ الكائنات في الأوضاع التي يريدها . ويضفي عليها الأوصاف التي يشاؤها . ويبرزها في الأوقات التي يختارها ، لا يستكرهه أحد على شيء من ذلك كله .

وما ترى في الأرض والسماء من تنوُّع في الوجود . وتميُّز في السمات هو مظهر الإرادة الحرة في كافة تعلقاتها .

فما أوجده الله في هذا العصر كان من حقه الكامل أن يوجده في الأيام الخالية .

ولو جعله كوكباً منفرداً كان يستطيع جعله جدلاً فرداً .

وتوزيع الصفات والأحجام والأحوال في أنحاء الكون العريض ليس إلا مشيئة العلية لله عز وجل .

ولو أراد أن يخلق العالم الذي نعيش فيه على نحو آخر في قوانينه وأنظمته أحياءه وأشياءه كله لفعل .

وأنت ترى الخلائق مشتتة دون أي عائق في إخراج الأصناف المختلفة من الأصل الواحد .

فالحقول المحدودة تختلف محصولاتها كماً وكيفاً .

والبذور المتجانسة تتفاوت فروعها حلاوة وحموضة ولوناً ووزناً فى النبات . ولؤماً ونبلا وذكاء وبلادة . فى الإنسان والحيوان .

« وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(1) » .

وقديماً مثل لأثمة على عظمة الإرادة — فى هذا المعنى — بالنحل يأكل من ورق الشجر فيحوله شهداً ، ويأكل منه الدود فيحوله حريراً ، ويأكل منه حشرات أخرى فتحوله قذراً .

وإذا اتجهت الإرادة إلى شىء فمستحيل أن يتخلف أثرها .

« إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(2) » . « إنما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(3) » .

وإرادة الله نافذة فى السماء والأرض . لا رادَّ لها ولا معقب عليها .

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ(4) » .

وقد تطلق الإرادة على قصد الشىء بأسلوب سلبىّ .

فأنت إذ خرجت من بيت يستطيع صاحبه منعك من الخروج منه ، وسكنه تركك . فهو بسكونه يريد خروجك .

وفى هذا المعنى يسير المتنبى — لما ترك سيف الدولة مغاضباً — ثم قال : — مبرراً عمله ، ومعلقاً التبعة على صاحبه — :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون همو

(1) الرعد : ٤ (2) هود : ١٠٧ (3) يس : ٨٢ (4) القصص : ٦٨

ومثل هذا ترك امرىء يمشى فى طريق الضلالة ويهيم على وجهه ، لأنه حرم أسباب اللطف ، والله قادر على سوقها إليه لو شاء ! .

ولعل ذلك تفسير قوله تعالى :

« وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شيئًا ، يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ».[1]

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ؛ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ[2] » .

الحكمة

وشمول الإرادة وعموم القدرة ، وكون الله سبحانه يفعل ما يريد متى يريد وكيف يريد ، ليس معناه أن أمور الخلق والرزق ، وشئون القبض والبسط ، وحظوظ الرفعة والضعة ، والإعزاز والإذلال ، والنصر والهزيمة — أن هذه جميعاً تصدر على طريقة الارتجال السريع ، أو الخواطر السانحة ، أو تتم اتفاقاً وتقع مصادفات عارضة ! كلا . كلا .

فإن الكون كله خاضع لشبكة دقيقة النسج من الأسباب والمسببات ، والسنن الثابتة الخالدة ، والقوانين المترابطة المتكاملة ، لا تضطرب ولا تختلف ولو اجتمع البشر على مناقضتها .

فالسنة تتم صحبة بالإرادة والقدرة .

ولكن مظهر الإرادة والقدرة — فيما عرفه — من غرس وسقي ، وتعهد ، وزمان ، ومكان .

(١) آل عمران : ١٧٦ (٢) آل عمران : ١٧٨

وحين نكمل سرا سوى بالإرادة والقدرة .

ولكن الكينه فى أطوار وأحوال ، لا بد من تواترها ، ويستحيل أن يوجد غيرها

وفوق ذلك فإن من يسر وهيج ملك ممن يسر

لا معنى بين عسير وحاسد — فمن دونه ويهدم أخرى

فذلك ونحو ذلك وقف نهى هو وجد مقدمات طويلة تستغرق سنين وعصور ، حتى تقع ساعة تريده .

وتجب على حسقه والأفكار القاصرة يحسبون أن وصف الله عز وجل أنه فعل ما يشاء ، معناه أن أحكامه فى عباده لا ضابط لها ولا رابط بينها .

وبعضهم يقيسون سعة السلطان الإلهى على ما عهدوه من تصرفات ذوى سلطة بينهم

وبئس من يحصون حمد عسواء وعسون عن الحق

تعالى الله عن الجاهلون علوا كبيرا

لا سلطان هى مستنبح مادة بين أبناء البشر ، لعلوا

من خير وشر

فحكمه ونظامه مقدرة سرع الله فى كونه ، أو بين عباده من قوانين كونية ، وقوانين شرعية .

شتان بين معنى أن الله يفعل ما يشاء ، وأنه يثيب العاصى أو يعذب الطائع ، أى أنه يجور عليه ظلما ، وتعالى الله عن ذلك ! !

وهــذا جهل شنيع . ونسبة ذلك إلى الله تـكذيب لما قال في كتابه العزيز .

ثم إن هذه العدالة مردُّها إلى ما ينبغي لله من كمالات ، بداهة .

وليس مردها إلى أنه لو ظلم تعرض لعقاب أو سؤال ، فذلك مستحيل .

ومن أين يحدث ذلك ، وهو متفرد في الوجود بالألوهية ، بين عبيد عَنَتْ له وجوههم ، وذلت له رقابهم ؟ !

إن بعض العامة من المسلمين يظنون في انطلاق المشيئة أن السنن الـكونية صفر ، وأن العدالة العليا قد تتخلف ، ونشأ عن هذا استهتار غبي بالأعمال والمسئوليات ؛ سنعالجه عند الـكلام على القضاء والقدر .

الحيــاة

مراتب الوجود تختلف رفعة وضعة .

فالجماد أنزل رتبة من النبت ، والحيوان أعلى درجة من النبت .

والوجود الإنساني أرقى من أنواع الوجود الأخرى .

والاتصاف لله سبحانه وتعالى بالحياة : معناه أن وجوده بلغ الغاية في عظمته وآثاره ، فهو موجود ، ويعرف أنه موجود ، وهو يهب الوجود غيره عن إدراك وخبرة ، وليس بعد هذا ... فهو حي

إن بعض الفلاسفة يتوهمون أن الله معزول في وجوده عن غيره ، ويسمونه الخالق علة العلل أو المبدأ الأول للوجود ، يعطون صورة مبهمة عن هذا الوجود الأسمى

حتى لنحسب أن هذا الوجود سكنت عنه الحياة لأعظم ... تشبه البحيرات السكنة التي لا ريح فيها ولا حركة معها ، وهذا ضلال . . .

فدلائل الحياة الكاملة تنبثق من الذات العليا انبثاقاً يتضاءل أمامه كل ما نعرف من صنوف الحياة ودرجاتها المختلفة .

أطلق لخيالك العنان ، وتصوّر كل ما تنتجه الأيدى « الحية » من أعمال ، وما تنشئه العقول « الحية » من أفكار ، وما تهتز به الأفئدة « الحية » من مشاعر .

واجعل هذا الخيال يضم أشتات ذلك من مشارق الأرض ومغاربها ، ويستجمع ما حدث في الأعصر الخالية وما يحدث اليوم وما سوف يحدث غداً ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

إن مظاهر هذه الحياة المفعمة بالقوة والإنتاج ، لا تعدُّ شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الحياة الإلٰهية الواسعة . بل هي أثر ضئيل من أعمال الحى الذى لا يموت ، الحى الذى ينفخ من روحه في الموات فيهتز ، وفي الجماد فيتحرك :

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ[١] » . « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ[٢] » .

العلم

الله تعالى عليم بكل شىء ، لا يسبق معرفته جهل ، ولا يعدو عليها نسيان ولا يمكن أن تخالف الواقع .

وعلمه محيط بالأمس واليوم والغد ، بالظاهر والباطن ، بالدنيا والآخرة .

(١) الأنعام : ٩٥ — (٢) البقرة : ٢٥٥

قد يعرف الإنسان شيئاً عن حاضره ، وقد يذكر طرفاً من ماضيه ، وما وراء ذلك فهو بالنسبة إليه عَمَاء .

بَيْدَ أن الإنسان لا يذكر من ماضيه الطويل إلا قليلا من الحوادث ، ولا يدرى من تاريخ العالم الذى يعيش فيه شيئاً طائلا .

لكن الله — وحده — يُحْصِى أعمالنا الماضية ساعة ساعة ، ويسجِّل أحوال العالم الغابر دولة دولة ، وحادثة حادثة .

« قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى؟ قَالَ : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى[(١)] » .

إنه علم يشرق على كل شىء : فيَنْجلى بواطنه وخوافيه ، ويكشف بداياته ونهاياته ، ويكتنه ذاته وصفاته .

فالمشهود والغيب لديه سواء ، والقريب والبعيد والقاصى والدانى .

« إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ[(٢)] » .

والعلم الإلهى يشرف على كل شىء إشرافَ تامًا ، ويُهَيْمِنُ على أطوار الموجودات — ما يحس منها وما يتوهم — هيمنةً كاملة .

فعدد ما فى صحارى الأرض من رمال ، وعدد ما فى بحار الدنيا من قطرات ، وعدد ما فى الأشجار من ورقات ، وعدد ما فى الأغصان من ثمار ، وما فى السنابل من حبوب ، وما فى رءوس البشر وجلودهم من شعر .

ثم ما يتمكن أن يطرأ على هذه الأعداد الكثيرة من أحوال شتى ،

(١) طه : ٥١ ، ٥٢ (٢) فصلت : ٤٧

وما تحتاجه فى وجودها من قوى متحددة ، وما يعتريها من أوصاف متغايرة .
ذلك كله يستوعبه شعاع واحد من أشعة العلم التى لا ندرى عقولنا من كنهها
إلا قليلا : « وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .
أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[1] » .

وهذا علم من خصائص الذات المقدسة .

وقد تثير منه بعض العقول حقائق يسيرة — على قدر طاقتها من معارف
كونية ، أو رشحات ضئيلة من الغيوب الخفية ، حسب قواعد مدروسة ،
وحكم مأنوسة .

وما وصل إليه البشر من ذلك مقرر معروف ، وما أوتوا إلا القليل .

أما الله عز وجل فكما قال فى كتابه :

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ،
وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا . وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ
وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[2] » .

السمع والبصر

عن عائشة رضى الله عنها : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ » .

لقد جاءت المجادلة « خولة » إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جانب
البيت تحدثه ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل .

« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا . إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[3] » .

(١) الملك : ١٣ ، ١٤ (٢) الأنعام : ٥٩ (٣) المجادلة : ١

أجل ! فما من كلام يدور بين الناس ، أو حديث يتجاذبون أطرافه إلا سبق وقعهُ إلى سَمْعِ الرحمن ، جل وعلا . قبل أى شىء ! .

ولا تحسبن أن الله حين يسمع نجوى جماعة يشغله ذلك عن سماع قوم آخرين .

كلا . فما يشغله شأن عن شأن ، وما تغيب عنه هَمْسَةٌ وسط الضجيج ، ولا تشتبه عليه لغة على اختلاف الألسنة .

إنك — بالوسائل التى هدى إليها البشر — تجلس فى المشرق فتنقل إليك محطات الإذاعة الأغانِىَ والأحاديث من المغرب ، طاوية الأبعاد الشاسعة .

فما أدراك بما وراء ذلك من أسرار الكون .

وما أيسر — فى منطق العقل — أن يشرف رب الكون سمعه على كل حركة وسكنة فى الوجود تنبعث من مصدرها القريب أو البعيد — وليس ثَمَّةَ قُرْبٌ ولا بُعْدٌ بالنسبة إلى الله — فيعلم كنهها ويسمع صوتها ويبصر وقعها ! . إن ربك يسمع كل صوت .

وهناك أصوات يسمعها ويحبها « ما أذِنَ — ما استمع — الله لشىء أَذَنَهُ لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » .

وكم يحب الله صوت الوحىِ ، ونوه الألسنة ؛ ويكره أصوات الفحش والسوء .

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا [1] .

(١) النساء : ١٤٨

ولا تستكثر أن يقال لك : إن الله يسمع خفقان القلوب فى حنايا الخلق أجمعين .

فما القلوب إلا أثر قدرته ، شحنها بالحياة ثم دفعها فهى تسير إلى أجل معلوم ، فكيف لا يسمع أثر ما أوجد ؟

وكما أن الله يسمع كل شىء ، فهو يشهد كل شىء ، ورؤيته تنظر فى أعماق الظلمات فتستشف كوامنها .

فما هو بحاجة إلى ضياء يبصر به الخفىّ ، أو مكبِّرٍ يُعَظِّمُ بِهِ الدقيق .

إذا كنت ثالث ثلاثة ، فاعلم أن هناك رابعاً يبصر ما تفعلون ، ويسمع ما تقولون :

« لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا »[1] .

عندما أرسل الله موسى وهرون إلى فرعون ، توجّسا من طغيانه وقالا : « رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ قَالَ : لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ »[2] .

إنه معهما ، ومع كل كائن ، مِنْ بَدْء الخلق إلى قيام الساعة ، وما قبل ذلك وما بعد ذلك ، يسمع ويرى .

وهو — سبحانه — قد رَكَّبَ فى وجوهنا هذه العيون التى نقرأ بها ونكتب ، ونشهد بها ما نشاء .

---

(١) الكهف : ٢٦ (٢) طه : ٤٥ ، ٤٦

ولكن ما قيمة رؤيتنا هذه إلى جانب الرؤية الإلهية المحيطة الشاملة .

لو أن كل ذى بصر انتظموا صفاً يستغرق محيط الأرض ، ثم اجتهدوا فى رؤية ما حولهم ، ما أبصروا شيئاً يذكر إلى جانب الرؤية الإلهية التى تستوعب جميع المدركات ، من جميع الجهات ، فى وقت واحد .

سواء فيه المستخفى بالليل والسارب بالنهار ، الخالى وحده ، والبارز للناس :

« وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ . . »[١] .

والإحساس بهذه الحقيقة جُزْءٌ من الدين ، بل هو قِمَّته العليا :

« الإحسانُ أن تعبدَ اللهَ كأنك تَرَاهُ . فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ ، فإنَّهُ يَرَاكَ » .

وملاحظة العبد لله ، أساسها شعوره بأنه سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت ، ومُطَّلِعٌ على ما أسرّت وأعلنَتْ . وذلك وحده لُبُّ التقوى وسِرُّ الإخلاص .

الـكلام

هو وسيلة الإبانة عما فى النفس من معارف ومصالح ورغبات شتى ، وتفهيم ذلك للآخرين .

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى مستحق هذا الوصف .

فقد عهد إلى ألوف من ملائكته بالقيام على شئون الإحياء والإماتة ،

(١) يونس : ٦١

فى أنحاء العالم العريض ، كما عهد إلى ألوف وألوف منهم بشئون شتى ، لا ندرى منها إلا القليل .

وهذا التسخير الدائم خاضع لأوامر الله التى يتكلم بها ، خلقاً ورزقاً ورفعاً وخفضاً ، ومحواً وإثباتاً ، وتقديراً وتدبيراً .. الخ .

وما حفل به علم الله فوق الحصر ، وما يدل على هذا العلم — من كلمات لا نهاية له - كذلك .

إن أحدنا — فى مباشرة أعماله المحدودة — يحتاج إلى قاموس من الألفاظ :

فما ظنك برب العالمين ، وهو يحكم ملكوته الواسع العظيم ؟ .

ألا ترى أن كلامه من السعة والاستبحار على النحو الذى يقول الله تعالى فيه :

« وَلَوْ أَنَّمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(١) .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا »(٢) .

والكتب السماوية التى نزلت على أنبيائه مظهر من مظاهر اتصافه جل شأنه بالكلام .

وقد كلم الله موسى تكليماً وسوف يكلم كثيراً من عباده يوم القيامة .

وأرسل الروح الأمين بخدمة الوحى إلى صاحب الرسالة العظمى .

ولكن القرآن الكلمة الأخيرة فى هدايات الله لعباده .

(١) لقمان : ٢٧ (٢) الكهف : ١٠٩

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[1] » .

أما حقيقة الكلام — كصفة لله — فلا نقصر فيها ولا نطيل ، لأننا دون هذا المجال بكثير .

بَيْدَ أننا نجزم بأن الكلام الإلهى ليس ألفاظاً تصنعها الشفتان واللسان ، وتضبطها الرئتان والحنجرة والأسنان . فذاك شأن الإنسان لا وصف الرحمن .

أنت أنت الله[2]

إذا ما اتجه الفكر فى السموات حيث انتشرت النجوم فى الليل ، وإذا ما كلّ البصر فيما لا نهاية له من الآفاق المظلمة ، وإذا ما خشعت النفس خَشْعَتَها من رهبة السكون الشامل ، فإنك تشرف بوجهك الكريم من خلال هذه الآفاق ، وتسمع صوتك فى ذلك السكون ، وتمس عظمتك النفس الخاشعة مطمئنة .

حينئذ تبدو الآفاق المظلمة كأنها باسمة مشرقة ، ويتحول السكون إلى نبرات مطربة ، تنبعث من كل صَوْب . وحينئذ تتغنى النفس الخاشعة فتقول : « أنت أنت الله » .

وإذا ما كنت جالساً على شاطئ البحر الخِضَمّ ، وأرسلت الطرف بعيداً ، حيث تختلط زرقة السماء بزرقة الماء ، وحيث تنحدر شمس الأصيل رويداً رويداً كأنها الإبريز المسجور ، لتغيب فى هذا المسبح اللجى الأجاج ، وحيث

(١) الأنعام : ١١٥

(٢) من « خطرات نفس » للدكتور منصور فهمى

تهدى الفلك ذات الشراع الأبيض فى حدود الأفق الملون بألوان الشفق ، كأنه طائر يسبح فى النعيم .

إذ ذاك يشعر المتأمل عظمة واسعة دونها عظمة البحر الواسع

وإذ ذاك تقرّ العين لطمأنينة الفلك الجارى على أديم الماء الممهد ، وفى رعاية الله الصمد . حيث تسكون مظهر العظمة . وحيث تطمئن النفس برؤية ما تطمئن إليه فى منظر جميل .

إذ ذاك لدى تعود صوت صداه فى النفس : « أنت أنت الله » .

وإذا ما مضت سفينة بعيداً بعيداً فى البحر اللُّجِّيِّ ، وهبت الزوابع ، وتسابقت الريح ، وتلبد بالسحب الفضاء ، واكْفَهَرّ وجه السماء ، وأبرق البرق ، وأرعد الرعد . وكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، ولعبت بالسفينة الأمواج . وأجهد البحار جهده ، وأفرغ الربانُ حيلته ، وأشرفت السفينة على الغرق . وتراءى الموت من كل صوب وحدب .

إذ ذاك يسوق صيّوت هذه الظلمات والمسالك ، وتحيط رأفتك بهذه الأخطار والمهالك . وتعم نعمة حنانك المنكوبين البائسين .

وإذ ذاك يُردّد القلب واللسان : « أنت أنت الله » .

وإذا ما سقم من حظيت به عناية الأطباء ، وسهر الأوفياء ، ودام بين أمل خائب ودعوات مخلصين . ثم ضعفت حيلة الطبيب ، ولم ينفع وفاء الحبيب ، وسحب رجاء الآل .

إذ ذاك تجلى مستوٍ على عرش عظمتك ، والنواصى خاشعة ، والنفوس جازعة ، والأيدى راجفة ، والقلوب واجفة تقول : « أنا قضيت » ، ويقول صب وقريب وحبيب : لك الأمر . أنت أنت الله » .

و إذا ما باين الدنيا إنسان و باينته ، إذ ينظر إلى المال فيلقاه فانياً ، وإلى الجاه فيلقاه ذاوياً ، و إلى الأمانى فيلقاها زائلة ، و إلى الآمال فيجدها باطلة ، و إلى الشهوات فيلقاها خادعة كاذبة ، و إلى المسرات فيجدها آفلة غاربة — إذ ذاك يستغنى عن الجاه والمال ، وتشل فى نفسه حركة الآمال . و بين جاه يدول ، وأمل يزول لا يملأ فراغ النفس إلا ذكرك : « أنت أنت الله » .

و إذا ما وقعت العين على زهرة تتفتق فى الأكمام ، أو تلاقت العين بعين يتلؤها الحسن والابتسام . و إذا أعجب المعجبون بجمال الفجر المتنفس ، وتغريد الطير المترنم . وعاود الصدر انشراحه ، وملأ القلب ارتياحه .

— إذ ذاك يشرق فى قلوبنا نورك الجميل فنراك : « أنت أنت الله » .

فيما يمس النفس من مظاهر العظمة . ومظاهر السعة ، ومظاهر الرحمة ، ومظاهر القدرة والقضاء . ومظاهر الدوام والبقاء . ومظاهر الجمال والجلال — اعتاد الناس أن يصفوك بالعظيم . والواسع والرحيم . والقادر والدائم . والجميل والجليل . وأخذ القلوب تردد : « أنت أنت الله . أنت أنت الله » .

(٤)
القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من العقائد التي أسسها الإسلام على الإيمان بالله عز وجل ، وبناها على المعرفة الصحيحة لذاته العليا وأسمائه الحسنى وصفاته العظمى .

ولا ريب أن الإسلام قد أوجب لله نعوت الكمال ، وصفات الجلال والجمال ، ودعا إلى الحمد والتمجيد .

ووافق العقل النقل في ذلك كله ، ثم فصلت هذه الكمالات الواجبة لرب الوجود « الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى[1] » .

فكان في عداد ما ينبغي الإيمان به والاطمئنان إليه ، أن لله وحده صفات العلم الواسع ، والإرادة الشاملة ، والقدرة الكاملة ، وأنه — سبحانه — فعّال لما يشاء [illegible] فعل .

وعلى هذه الصفات قامت عقيدة القضاء والقدر . فكان الإيمان بها لا ريب — جزءاً متمماً للإيمان بالله ، وعنصراً من حقيقته الواضحة المشرقة .

علم بأن الله وسع كل شيء علماً ، وأحاط بكل شيء خبراً .

سواء في هيمنته دبيب النمل في جحورها ، أم وثبات الأفلاك في مداراتها .

[illegible] يستغرق الأمكنة على تعدادها ، والأزمنة على تطاولها ،

فما تغيب عنه نفحة في مشرق أو في مغرب ، وما يغيب عنه يوم في الأزل أو الأبد .

(1) الأعلى : ٢ ، ٣

وأحداث الحياة — وما أكثر ما يلوح فى آفاق الحياة من خير وشر ويأس ورجاء وحزن وفرح — ذلك كله استوعبه العلم الإلهى عدّاً وإحصاء :

« وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[1] » .

وفى صفحات هذا الكتاب خُطَّت سطور القضاء والقدر ، وعُرِفَتْ مصاير الأمور ، وَوُضِّحَتْ نهاياتها . من شقاوة وسعادة . ولكن أنَّى لنا علم بذلك ؟

إِنَّمَا الْغَيْبُ كِتَابٌ صَانَهُ ... عَنْ عُيُونِ الْخَلْقِ رَبُّ الْعَالَمِينْ
لَيْسَ يَبْدُو مِنْهُ لِلنَّاسِ سِوَى ... صَفْحَةِ الْحَاضِرِ حِيناً بَعْدَ حِينْ

ويتعلق القضاء والقدر بوقائع الحياة وأحداثها وأعمال الناس وتصرفاتهم على نحوين واضحين متميزين ! لكل نحو منهما حكمه الخاص وآثاره التى تترتب عليه .

وبين كلا القسمين فواصل قائمة ، تجاهلها أوقع فى الدين الغموض والاضطراب . ولذلك سنوضح حدود كل قسم ومعناه .

نحن مجبورون فى هذا كله

هناك أمور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا ، وعلى وفق المشيئة الإلهية وحدها . وهى تنفذ فى الناس طوعاً أو كرهاً . سواء شعر بها الناس أو لم يشعروا فالعقول ومقدار ما أودع فيها من ذكاء أو غباء . والأمزجة وما لابسها من

(١) يونس : ٦١

هدوء أو عنف . والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر ، وجمال أو قبح ، والشخصيات وما تطبع عليه من امتداد أو انكماش ، والزمان الذى تولد فيه والمكان الذى تحيا به . والبيئة التى تنشأ فى ظلها ، والوالدان اللذان تنحدر منهم . وما تتركه الوراثة فى دمك من غرائز وميول : والحياة والموت ، والصحة والمرض ، والسعة والضيق ، ذلك ومثله ، لا يد للإنسان فيه .

فأصبحت القدرة وحدها هى التى تتحرك ظاهرة وباطنة ، لتوجه الحياة كما يريد صاحب خيرة .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١) .

وغنيٌّ عن البيان ، أن شيئاً من هذا ليس محل مؤاخذة ولا موضع حساب وإنما نلفت النظر إليه لنعرف أن الجنسية التى تنتمى إليها ، واللغة التى تنطق بها ، ونوع التكوين الذى وجد الإنسان عليه ، ذكراً كان أو أنثى .

هذا شىء من الخصائص التى لا قِبَلَ لنا بها ، ولا سبيل لنا إليها ، وفى هذا يصدق قول القرآن الحكيم .

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(٢) .

والإيمان بهذا الضَّرْبِ من القدر واجب ، والأدلة عليه متظاهرة من العقل والنقل .

وعلى المؤمن أن يوقن — من أعماق قلبه — أن هذه أمور مفروغ منها ، مفرقة على ذويها من قديم ، قد جفَّت الأقلام بها فلا راد لها !

هذه أمور علمها الحق وأرادها ، ونفذها استقلالا ، ولسنا منها فى قليل ولا كثير .

وقد أحسن سلفنا الصالح الإيمان بها ، فكان أثرها فى مسلكهم رائعاً .

وإذا علم الواحد منهم أن أجله مكتوب لا ينقصه الإقدام ولا يزيده الإحجام ، أدى واجبه على وجهه الأكمل ، وفى أذنيه دَوِيُّ التوجيه الإلهى .

« قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »[1] .

ومواضع الرجوع إلى القضاء والتسليم لله فيما أراد ، كثيرة متنوعة ، وهى تعطى الرجل صلابة وقوة واندفاعا ، وتملؤه عزيمة وتحملا وجلادة .

هنا إرادتنا حرة

أما القسم الثانى من متعلقات القضاء والقدر ، فهو متصل بأعمالنا على عكس الأول .

ونحن نشعر حين أدائه بيقظة عقولنا ، وحركة ميولنا ، ورغبة ضمائرنا .

فما مدى صلتنا به ؟ وما معنى نسبة القدر إليه ؟

(١) التوبة : ٥١

الخطبُ سَهلٌ جدًا ، وسنجيب على هذا التساؤل بما يذر شُبَهَ المشوشين هباء إن شاء الله .

إننا نحسُّ باستقلال إرادتنا وقدرتنا فيما نباشر من أعمال تقع في دائرتهما ، وكان يكفي هذا الإحساس دليلا على حريتهما لولا أن هناك من يزعم أن الإحساس كذب أحيانا .

ونكسب ضماننا إلى صدق هذا الإحساس ونكذب ما يغض من قيمته بعد أن نرجع إلى القرآن الكريم نستفتيه في ذلك .

ونحن نجد القرآن يؤكد هذا الإحساس البديهي وينوه بحرية الإرادة الإنسانية: « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » [1].

ولا يخليه من المسئولية الواضحة على ما يصدر منها :

« قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل » [2]

إن طبيعة الدين — وهي التكليف والابتلاء — لا تتحقق ألبتة مع استعباد الإرادة وتقييدها .

وهذا الجزاء كذلك لا يتوجه ولا يقر إلا في هذا الجو الطلق الفسيح .

وليس هذا موضع سرد الآيات الشاهدة لذلك . فالقرآن كله شواهد بينات ودلائل واضحات .

فما موقف العلم الإلهي إذن من هذا النوع من أعمال الناس ؟ هو الإحاطة التامة والشمول الكامل :

(١) الكهف : ٢٩   (٢) يونس : ١٠٨

« عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى [(١)] » .

ولكن كيف يتفق القول بحرية الإرادة والقول بأن أعمالنا لن تخرج عن دائرة العلم الإلهي المحيط الشامل ؟

والجواب سهل ! قف أمام مرآة مجلوة صافية وأنت عابس الوجه مقطب الجبين فماذا ترى ؟ سترى صورتك كما هي عابسة مقطبة .

أيُّ ذنب للمرآة في ذلك ؟ إن مهمتها أن تصف وأن تكشف وهي قد صدقت فيما أثبتت لك . ولو كنت ضاحك الوجه لأثبتت لك على صفحتها خيالاً ضاحكاً لا شك فيه .

كذلك صفحات العلم الإلهي ومرائيه لا تتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك ، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح : فهي تتبع العمل ولا يتبعها العمل .

غاية ما يتميز به العلم ، أنه لا يكشف الحاضر فقط . ولكنه يكشف — كذلك — الماضي والمستقبل .

فيرى الأشياء على ما كانت عليه . وعلى ما ستكون عليه . كما يراها وهي كائنة . سواء بسواء !

بقي بعد ذلك تفسير ما قررناه من شمول الإرادة العليا . ومن هيمنة القدرة العليا على الخلائق كافة . فما معنى ذلك وكيف يتفق مع حرية الإرادة الإنسانية ؟ !

(١) طه : ٥٢

معنى

« يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ[١] »

الخطب فى ذلك سهل كذلك ، ولن نذهب فى بيانه إلى أبعد من كتاب الله لمن شاء أن يفهم .

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[٢] » ؟

ونحن نجد أن إطلاق المشيئة فى آية ، تقيده آية أخرى يذكر فيها الاختيار الإنسانى صريحاً .

فمعنى أن إضلال الله لشخص ، معناه : أن هذا الشخص آثر الغىّ على الرشد ، فوفره الله على مراده ، وتمم له ما يبغى لنفسه .

« فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[٣] » .

وانظر إلى قيمة التنويه بالاتجاه البشرى المعتاد .

« وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ[٤] » .

فليس ثمة غموض فى إطلاق المشيئة : لا .

بل معنى قوله « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ » ، لا يعدو قوله :

« وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ[٥] » .

وكذلك الحال فى « يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

(١) فاطر : ٨ (٢) القمر : ١٧ (٣) الصف : ٥
(٤) النساء : ١١٥ (٥) البقرة : ٢٦ ، ٢٧

انظر إلى قيمة الإرادة الإنسانية فى قول الحق وهو يتكلم عن إرادته :
« قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (١) »

فهو يهدى إليه من أناب « إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

اجعل أيها القارئ هذا المصباح بين يديك ؛ وسر فى نوره بين شتى السور فلن تجد فى دين الله قلقا أو اضطرابا .

وإنما القلق والاضطراب فى عقول الحمقى ، وقلوب الغافلين .

وهنا قد يسأل بعض الناس عن حدود الإرادة الدنيا والعليا فى الأعمال .

ومع أن هذا السؤال لا مبرر له فنحن نتبرع بالإجابة عنه حتى يظهر السر فى نسبة الهداية والإضلال : تارة لله : وتارة للإنسان .

هل تعرف ما يفعله الفلاح فى حقله . إنه يلقى البذر و يتعهده بالسقى ، وعلى الله الإنبات والإثمار :

تستطيع أن تسمى الفلاح زارعا — وأنت صادق — لقيامه بالسبب .

وتستطيع أن تسمى الحق سبحانه زارعا لقيامه بالعمل .

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا (٢) » .

فالإنسان فى سعيه مثل ما للفلاح فى زرعه .

فإن زرع خيرا — وهو مختار — جنى من يد القدرة سوف ثمرة [illegible] .

وإن زرع شرا — وهو مختار — جنى من يد القدرة ثمرة شوك زرعه .

وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (٣) .

(١) الرعد ٢٧ ، ٢٨ (٢) الواقعة ٦٣ — ٦٥ (٣) التوبة ١٠٥

كذب على دين الله

على أنه كثيراً ما يحدث أن تختلط مظاهر الجبر الإلهى بمظاهر الاختيار الإنسانى فى أمور عديدة لا نريد الآن أن نضرب لها الأمثلة .

ولكنا نريد أن ننبه إلى أن الحساب الأخروى شبيه بالمعادلات الرياضية !

يوضح فيه ما لله ثم يحاسب العبد على ما قدمت يداه .

« إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها [1] » .

ولكن فريقاً من الناس زعم أن الله كتب كل شىء ثم سخر الناس فى هذه الحياة لتنفيذه ، وأجبرهم على فعل ما يفعلون وترك ما يتركون .

وكان صدى هذه العقيدة الخرافية أن نسمع إلى بعض الجهلة من المتصوفين ، يرى المنكر أمامه فيهز كتفيه قائلا : (وضع العباد فيما أراد) .

أو نسمع لأحد العصاة من المتبجحين وهو يقول لك — حين تنصحه — : ربنا يهدى لله . .

وقريب من ثرثرة هؤلاء المغفلين قول المشركين — قديماً فى الاعتذار عن ضلالهم — ولو شاء الله فعلنا غير ذلك ! .

وقد جاء فى القرآن هذه الأباطيل فى غير موضع واحد من آياته البينات .

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون [2] » .

(1) النساء : ٤٠ (2) الأنعام : ١٤٨

وانظر كيف يرفض القرآن هذه المكابرة الآثمة ، إذ لا يلتفت للرد عليها حتى لا يكون نقاشها نوعاً من الاعتراف بها .

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[1] » .

وما أثر هذا البلاغ المبين عند الله وعند الناس ؟ إنه أثر يقطع دابر المحتجين .

« رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[2] » .

ألا فليفهم ذلك النيام ! ليفهم ذلك الشرقيون الكسالى ممن يصطنعون الفلسفة والإدراك !

يَفْهَمْ ذلك الذين آثروا الهزيمة والقعدة ، فوهت عزائمهم وَوَهَتْ قدرهم ، وناموا في ظلال الهزيمة والعجز ، على حين برز في الحياة أصحاب الهمم الجريئة والسَّبْق البعيد !

ليفهم ذلك الذين ظنوا عقيدة « القضاء والقدر » ثغرة في الإسلام يغمزون منه إلى حمد الكريم و « وَلَنْ يَكُنْ فِتْنَةٌ [illegible][3] » .

الاعتذار بالأقدار

كثيراً ما يعتذر الإنسان عن أخطائه ، بتهوينها ، أو تبريرها .

وقد يعالج خطأ الدفه بخطيئة جسيمة ، كأن يحتج في الكذب مثلاً ، [illegible] الذي لا ينطوي إلا على مخرج .

(١) النحل : ٣٥ (٢) النساء : ١٦٥ (٣) الجاثية : ٢٠

قد يؤمر الإنسان بشيء مّا ، فيثّاقَلُ عنه ويخلد إلى الأرض ولا يؤديه ؛ وقد يزجر عن شيء مّا ، فيخدع به وينزلق إليه .

فإذا ما حدثته فى صنيعه هذا ، لم يذكر عنه الحقيقية من كسل عن الخير أو ميل إلى الشر .

بل قال — فى صفاقة — : ما حيلتى . ؟ إننى مقهور ... معذور ...

مردداً قول المشركين القدماء — لما نهاهم الرسول من عبادة الأصنام :

وَقَالُوا : لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ »[1] .

إن تجاهل الإنسان لما زوّده الله به من قوة وتفكير ، وما ذرأ فى طبيعتنا من استعداد للرفعة والضّعة ، وما وهبه من حرية نتوجه بها إلى الخير أو الشر دون أى ضغط أو قهر .

إن ذلك التجاهل لا ينقص فتيلا من مسئوليته الملقاة على عاتقه ، مهما هرب منها من مكابرة وامتراء .

وقد ضمنى مجلس مع نفر من أولئك الذين يرمون على القدر أثقالهم . وسمعت إلى ما يعتلون وتعلقوا به من أفهام ، فوجدت أكثره أفهاماً مغلوطة حول ما ورد من نصوص .

وإن كانت هذه الأغاليط قد راجت — للأسف — بين جماهير العامة .

فقد رفض النبي صلى الله عليه وسلم من الرجال الذين بنوا أنفسهم على جهد وعدة أن يستريحوا ساعة باسم هذا القدر .

[1] الزخرف : ٢٠ ، ٢١ .

فعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه : أن رسول الله طرقه وفاطمة ليلا فقال : ألا تصليان ؟ فقلت : يا رسول الله ، أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا .

فانصرف رسول الله حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلىّ شيئاً — لشدة استغرابه — ثم سمعته يقول — وهو مولٍّ يضرب فخذه بيده — :

« وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً »[1] .

إن هذه الكلمة من أبي الحسن ردت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعجب كيف قيلت .

ولئن تمشت مع طبيعة الإنسان في الجدل ، فليست من طبيعة رجل كعلي [illegible] في دين الله مكانه .

ولعله أثر الجهد والكلال الذي يصيب المرء عند [illegible] إلى فراشه [illegible] حكمه دون ما المفر منه .

وقد روى في عصمهم قصة آدم مع موسى دليلا على جواز الاعتذار [illegible] ، وهي كما رواها أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم :

[illegible] آدمُ وموسى فقالَ موسى : [illegible] آدمُ أنتَ [illegible] أخرجتنا مِنَ [illegible] : فقالَ له آدمُ : [illegible] أنتَ موسى اصطفاكَ اللهُ بكلامِه وخطَّ لكَ [illegible] بيدِهِ . [illegible] تلومُني على أمرٍ [illegible] اللهُ عليَّ قبلَ أنْ يخلقَني [illegible] . قال رسول الله : فحجَّ آدمُ موسى .

[illegible]

[1] الكهف : ٥٤

فالحديث وروايات الأخرى ، يشير إلى أن موسى كان يريد تحميل آدم متاعب الإنسانية كلها . ويرجع شقاء أبنائه جميعاً إلى أَكْلَتِهِ المشئومة من الشجرة .

وقد دافع آدم عن نفسه بصدق .

فإن وجود حية البشرية لم يكن نتيجة طبيعية ولا عقلية لذنب آدم .

كان من الممكن جداً أن يعاقب آدم على خطئه بأى عقاب آخر كالتوبيخ أو الحرمان المؤقت أو غير ذلك .

أما ترتيب وجود العناء في الأرض بآلامه وآثامه على هذه المعصية ، فهذا قدر إلهى محض لا دخل لاختيار آدم فيه ، ولا يجوز أن يعتب عليه ، ومن هنا حج آدم موسى .

أما مسئولية آدم الخاصة عن ذنبه الذى استغفر الله منه . فلا صلة له بهذا الحديث .

إن خطيئة آدم ليست سبباً شرعياً ولا علة عقلية لوجود العناء والبشر الذين في غمرات الحياة يشقون ويكدحون .

ولما توهم موسى ذلك ، عاتبه آدم ورده إلى أن ذلك القضاء المكتوب ، فلا يجوز لأى شيء أن ينسب للأب الأول هذه الأوزار كلها .

وفى رواية أخرى لأصحاب السنن :

قال موسى : يا رب ، أرنا آدَمَ الذى أَخْرَجَنا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ .

فَأَرَاهُ اللهُ آدَمَ عليه السلام .

فقال : أَنْتَ أبونا آدَمُ ؟ فَقَالَ له آدم : نَعَمْ . فقال : أَنْتَ الَّذِى نَفَخَ الله فِيكَ من روحه ، وعلَّمك الأسماءَ كلَّها ، وأَمَرَ الملائِكَةَ أَنْ يَسْجُدُوا لَكَ .

قال : نعم .

قَالَ : فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تُخْرِجَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ ؟ .

قَالَ آدَمُ : فَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا مُوسَى ! .

قَالَ : أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ رَبُّكَ بِرِسَالَاتِهِ ؟ أَنْتَ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَلَّمَكَ اللهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُبِ وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَسُولاً مِنْ خَلْقِهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! .

قَالَ : فَمَا وَجَدْتَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي كِتَابِ اللهِ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ .

قَالَ : بَلَى ! ! قَالَ : أَفَتَلُومُنِي فِي شَيْءٍ سَبَقَ فِيهِ مِنَ اللهِ الْقَضَاءُ قَبْلِي ؟ .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : فحجَّ آدم موسى ، فحجَّ آدم موسى ، فحجَّ آدم موسى » .

إن آدم يعلم — من غير مراء — أنه أخطأ حين أكل من الشجرة وقد اعترف بذلك عن صدق ، وطلب من الله المغفرة وغفر له !

أما أنه مصدر ما وقعت فيه البشرية كلها من عناء ، فهذا ما أنكره — وهو محق — وجعله من شئون القدر الأعلى ؛ واقتنع بذلك موسى كما رأيت ومن السخف أن نخطىء نحن ثم نسوق كلمة آدم عذراً لنا . . على خطئنا .

إن الصورة التي يرسمها الجبريون لهذا لا ترمز إلا إلى الفوضى المطلقة والخلط الشائن .

ومن كان البشر — في نظرهم — محكومين بأقدار لا خيرة لهم فيها ، فهم لا يفرقون بين بر وفاجر .

وإنك لتسمع في كلام بعض الصوفية ممن استهواهم هذا المذهب الباطل ، تسوية بين آدم وإبليس ، وبين موسى وفرعون ، إذ الكل — في نظرهم — مسوقون إلى مصائر قدرت عليهم أزلاً .

و [illegible] خبة إلا رواية [illegible] أفرادها بما فرض عليهم من مواقف ،
و [illegible] مس كمت .

[illegible] ! الليلُ سِتْرٌ والنهارُ الملعبُ

و [illegible] هذه الصورة مرتسمة في أذهان الكثيرين ،
[illegible] وإن كان [illegible] بها .

[illegible] هذه الصلاة بين الناس [illegible]
[illegible] .

[illegible] على تصحيح [illegible] في عمدة
[illegible] حتى تعود كما كانت .

[illegible] والأولى على ترك السر
[illegible] .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

و إنما القصد صرف همة الرسول عن قوم طالما دعاهم ، و بذل جهوده لإنقاذهم من غوايتهم، فأصرّوا على تنكّب الصراط المستقيم بمحض اختيارهم .

وقول الله تعالى « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ[١] » لا يعنى أكثر من مواساة الرسول عند ما مات عمه أبو طالب كافراً ، وكان شديد الحرص على إيمانه .

بَيْدَ أن الرجل إلى آخر لحظة من حياته آثر الوثنية على التوحيد مع طول مناشدة الرسول إياه أن يؤمن بالله و يدخل في دينه .

وقوله تعالى « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا[٢] »

معناه أن الأغبياء الشاردين عن الحق يرشحون أنفسهم حيثما ساقتهم وسرودهم.

فجاء التعبير عنهم متمشياً مع أسلوب اللغة في الأداء البليغ .

مثل قول الأستاذ لتلامذته في الدرس — مهدداً الكسالى — : إن سقوط [illegible] من كل [illegible] الدروس و [illegible] الامتحان .

وهذا الكلام لا يسوق [illegible] ظاهره [illegible] .

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

---

(١) القصص [illegible] (٢) الأعراف ١١٥

[illegible] في [illegible] إلى الإنسان وحده ، أو إلى الله وحده . فإن [illegible] لا [illegible] الأخرى .

[illegible] هذه القاعدة [illegible] — على صوتها — آيات كثيرة [illegible] . [illegible] من الله [illegible] ، ولا [illegible]

[illegible]

[illegible] في الأرض أم أراد بهم ربهم [illegible]

[illegible] والإ[illegible] والشقيا إلى [illegible] .

[illegible] فهو يسقين [2] »

[illegible] : « فأردت أن أعيبها [3] »

[illegible] وأستخرجا [illegible]

[illegible]

[illegible] ٨١

« وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[1] »

وقد جاءت في القدر أحاديث شتى عن النبي صلى الله عليه وسلم، توضح ما قد يلتبس على الأنظار فيها حتى تقطع الاعتذار الباطل بها.

فَعَنْ عَلِيٍّ : كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَة ، فَنَكَّسَ وَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ . فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ . أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟

قَالَ : اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ .

أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَصِيرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ .

وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيَصِيرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى[2] »

وفي حديث — [illegible] — لا [illegible]

[illegible] في الآخرة

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

فمن زرع تفاحاً آتاه الله ثمرة شهية ، ومن زرع شوكا جنى ما غرس .

والآية التي استشهد بها النبي صلى الله عليه وسلم تدل أوضح دلالة على ذلك .

فإن من تعلق بأسباب الخير — من عطاء وتقوى وتصديق — أكمل الله عنايته ويسره للحسنى .

ومن تعلق بأسباب الشر — من بخل وفجور وتكذيب — أتم له قصده وأملى له في غيه ، ويسره للعسرى .

وإليك حديث آخر طالما رجف به الجهلة ، يحسبون أنهم سوف ينقضون به الدين من القواعد : ودين الله أقوى مما يظنون ، وأعلى مما يبصرون .

[illegible] ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« والذي لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

[illegible] من الناس ، خواتيم أعمالهم تغاير [illegible] .

[illegible] من [illegible] الناس .

[illegible] الحقيقة ثم [illegible] .

[illegible] فوقع في [illegible] .

ولو أن أحدًا اطّلع الغيب ثم قارن بين ما يراه فى أحوال هذين فى مطالع حياتهما ، وما سطر فى الكتاب عن خواتيم أعمارهما ، لَعَجِبَ وطال استغرابه .

غير أن هذه المصاير المتناقضة لم يكن للقدر السابق أثر جبرى فى خَطِّها على هذا النحو .

والتعبير فى الحديث الوارد بِسَبْقِ الكتاب لا يعنى أكثر من دقة العلم وانضباطه ، وهو جار فى هذا على أساليب المبالغة فى لغة العرب .

فقد تتوقع بشخص مّا نهاية معينة ، فإذا وصل إليها عبَّرْتَ عن ذلك بتعبيرين كلاهما صحيح .

تقول : تحقق فيه ظنى ، أو صدق فيه حكمى .

ولك أن تزداد تنويهاً بفراستك وذكائك فتقول :

إنه ما كان يستطيع أن يفعل غير ما توقعته ، أو تقول : إن حكمى لا يتخلف أبداً .

وكم فى اللغة من تعبيرات تقوم على هذه التحويرات اللفظية المختلفة :

وَمَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أَرْجَاؤُهُ ... كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ

أى كأن لون سمائه أرضه .

وفى التشبيه المقلوب قالوا :

كأن الصباح المتألق وجه الخليفة حين يُعطِي .

و يقول الله تعالى مثلا : « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ »[1]

(١) الأعراف : ٢٧

والمعنى لا تفتنوا بالشيطان .

ومهما اختلفت التراكيب والأساليب فإن المعنى لا يخفى على اللبيب .

ومن ثَمَّ فلا يجوز أن نهدر حريتنا فى العمل وأن نلقى التبعة على القَدَر ، متعللين بما لا نبغى التعلق به .

إجابة ساخرة . . .

سألنى سائل : هل الإنسان مُسيَّر أم مُخَيَّر ؟ فنظرت إليه فى ضيق شديد . وودت أن أنتوىَ معه فى الإجابة ، كما التوى هو مع فطرته فى هذا التساؤل وقلت له : الإنسان نوعان : نوع يعيش فى الشرق ، ونوع يعيش فى الغرب والأول مُسَيَّر ! والآخر مخيَّر ! . ففغر الرجل فاه عن ابتسامة هى بالضبط عصب تذوب الكسالى والعَجَزَةِ والثرثارين الذين ينتشرون فى بلادنا .

ثم قال : ما هذا الكلام ؟ إنى أسألك : هل للإنسان إرادة حرَّة وقدرة مستقلة يفعل بهما ما يفعل ويترك ما يترك ، أم هو مجبور ؟

فقلت له : قد أجبت . الإنسان فى الغرب مستقل وفى الشرق مستعمر . الأول له إرادة وقدرة ، وهذا لا شىء له ! !

فضحكت أحد الحاضرات وقال : هذه إجابة سياسية . فقلت : وإنها لدينية كذلك . .

إن رجال القوم فى الغرب شعروا بأن لهم عقولا ففكروا بها حتى كشفوا أسرار من بدائع الكون .

وشعروا أن لهم إرادة فصمموا بها حتى التقت فى أيديهم مصاير الأمم والسياسات .

وشعروا بأن لهم قدرة ، فجابوا المشارق والمغارب ، وصنعوا الروائع والعجائب ..

أما نحن فهذا .. رجل من ألوف الألوف التى تزحم البلاد يأتى يستفتى فى هذه المعضلة التى غاب عنه حلها .

أله حق عقل حر يستطيع أن يفكر به ؟

أله إرادة يستطيع أن يعزم بها ؟

أله قوة يستطيع أن يتحرك بها .

وإلى أن نثبت له نحن ذلك ! سوف يبدأ فيفكر ثم يعزم ثم يعمل ! !

أما الآن فهو — فعلا — مسيّر من ذلك الرجل المخيّر فى الغرب . .

ما أبعد البَوْنَ بين الشخصين .

الرجل فى الغرب أُلقِيَ به فى تيار الحياة ، فعلم أن له أعضاء يستطيع أن يعوم بها . فظل يسبح مع التيار تارة وضده تارة أخرى ، حتى وصل إلى الشاطىء ! !

أما هنا ، فلما ألقى بالرجل فى معترك الأمواج ، بدأ يسائل نفسه :

هل أنا حىٌّ حقٌّ أم أنا جثة هامدة ؟

أو بتعبير المتفيهقين ، هل أنا حرٌّ أم أعضائى مقيدة ؟

ولكن التيار الجارف لا ينتظر نتائج هذه الفلسفة ، فلا يلبث أن يطويه اليم مع الهالكين .

وليس يُغْنِي فى عزائه قولُ الشاعر الفقيه :

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ : إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ

اعمل أيها الرجل ، ولا تقل : هل أنا مسير أم مخير .

واستغل المواهب التي آتاك الله . واشعر بأن لك في الحياة حقوقاً وعليك للحياة واجبات .

وكفى كذباً على الدين وعلى الدنيا !

على هامش الأقدار

(١) قد يطلق التقدير على جملة القوانين التي تضبط شئون الحياة و ... على ... ظواهر الكون و ... في الأرض والسموات و... ... حتى الأشياء من ذرات وخلايا تخضع في كمها وكيفها ... دقيقة ... . وتؤدي أغراض وجودها في خط لا تضل عنه ولا تحيد :

« ... الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »[1] .

فالقوانين التي تعرف بها مقادير العناصر التي تكون الماء ، والقوانين التي تعرف بها أحجام ... وضغوطه إذا تبخر أو تجلد أو انساب أو اندفع .

... كلها تقديرات الخالق التي يسيّر عليها ملكوته في الكائنات كلها من غير عوج أو اضطراب :

« ... كل شيء خلقناه بقدر »[2] .

« ... ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى »[3] .

وقد ... حتى ... أن ما نشاهده من نضج الثمار واستوائها ، وتخلق الأجنة في أرحام الأمهات ونزولها وتكوّر الليل والنهار نتيجة حركة الأفلاك ... كله قدر حكيم . ونظام مستقيم :

(١) ... : ٥٠ (٢) القمر : ٤٩ (٣) الأعلى : ١ — ٣

« إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ . ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »[١] .

(٢) عدالة القدر لا تنافى التفضُّل والتَّميُّز ، أعنى أن الرجلين قد يؤديان عملا متشابها . و يستحقان أجراً واحداً ، ومع ذلك يعطى الله الرجلين أجر يهما ثم يمنح أحدهما ز يادة خاصة من لدنه و يترك الآخر ! !

وقد يرتكب مخطئان ذنباً واحداً و يستحقان عقو بة مشتركة ، ثم يصدر عَفْوٌ عن أحدهما ، و يبقى الآخر رهين ذنبه !

هذه الأحكام إنما نقررها ليعرف الناس أن الله لا مستكره له ولا قيد على مشيئته ، فَلْيأت العباد إلى ساحته وقلوبهم منفعلة بمشاعر الرغبة والرهبة فحسب !

« إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »[٢] .

ومن ثَمَّ نعرف القصد من إسناد العموم إلى المشيئة العليا ، ثم فيما يتصل بمغفرة الذنوب .

« إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ »[٣] .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) الأنعام : ٩٥ ، ٩٦ (٢) آل عمران : ٧٣ ، ٧٤
(٣) العنكبوت : ٢٠ — ٢٢

« إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ! .

أوتى أهل التوراة التوراة فعملوا بها ، حتى إذا انتصف النهار فعجزوا . فأعطوا قيراطاً قيراطاً . . .

ثم أوتى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر فعجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً .

ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس ، فأعطينا قيراطين قيراطين ! فقال أهل الكتابين : أى رب : أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين ، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ، ونحن كنا أكثر عملاً منهم ؟ ؟ .

قال الله عز وجل : هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهو فضلى أوتيه من أشاء .

* * *

وكم فى أوضاع الحياة من تفاوت يرجع أمره إلى القدر الأعلى .

هذا التفاوت بما ينطوى عليه من تفاضل ، هو من دعائم العمران ونظام الوجود .

فمن المستحيل أن يخلق الناس متساوين فى كفاياتهم المادية والأدبية ، أو أوضاعهم الاجتماعية والسياسية أو أجزيتهم الدنيوية والأخروية .

والوظائف التى تقوم بها الحياة تحتاج إلى رءوس وأذرعة وأقدام ، والناس قسم على هذه الأنحاء يؤدى الاجتماع البشرى رسالته متناسقة منكاملة . وإنما يقع العيب فى أعمال الناس إذا وضعوا رأساً موضع قدم ! وقدماً موضع رأس !

والأمة التى تصنع ذلك تشبه الأحمق الذى يضع طربوشه فى رجله ، وحذاءه على دماغه .

وما أكثر هذه الأمم فى الشرق المحتلّ المختلّ .

لِنَدَعْ هذا الآن فلسنا بصدد إصلاح اجتماعى ، ولكننا نريد لفت النظر إلى أن الأقدار قد توزع الأعمال والأعباء على الناس ، كما يوزع القائد جنوده فى المعركة ، فيكون حظ بعضهم الوقوف فى صفوف القتال الأمامية لتلقى الضربة الأولى ، بينما يكون حظ الآخرين نقل المؤن وكتابة الرسائل فى مؤخرة الجبهة . وكلا العملين ضرورى فى الميدان .

* * *

على أن هذا التفاوت لا يضير قاعدة العدل فى الجزاء ، ولا يعنى ألبتة أن القدر يبخس حقًّا ، أو يجهل وضعاً .

فلكل امرئ عند الله حسابه الخاص به .

وفى دائرة ما زُوِّد الإنسان به من قوى ، وأتيح له من فرص ، وأحيط به من ظروف ، يكون تقدير ثوابه وعقابه .

قرأت مرة : أنه أقيم سبق فريد للطيران ، لم تكن منح الجوائز فيه للطيار الذى يصل إلى الغاية المرسومة قبل غيره . بل كانت تجرى معادلات جبرية معقدة بين قوى الطائرات .

وما تستطيع الآلات فى حدود طاقتها أن تقطعه ، مع مراعاة حال الجو وإمكان الرؤية وسرعة الريح . . الخ .

ومعنى ذلك أنه قد يحدث أن تصل طائرة مسبوقة بأربع طائرات أخرى . مثلا ، وتعطى الجائزة الأولى لا الخامسة . كما يظن لأول وهلة .

إن هذا السباق مثل قريب للتفاوت الشاسع بين قيم النفوس وما أودع الله فيها من ذكاء ومقدرة ونشاط ، تختلف أنصبة الناس منه اختلافاً كبيراً ومثل كذلك للأسلوب الذى توزن به أفعالهم ، ويحكم به على جهودهم من غير افتيات أو هضم .

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ »(١)

إن النفوس أشبه ما تكون بمصابيح الكهرباء ، هذا يضىء بقوة خمسين شمعة ، والآخر بقوة مائة ، وغيرهما بقوة مائتين .

فإذا أضاء المصباح ذو المائة شمعة بقوة سبعين فقط ، فهو أكثر عطاء من مصباح ذى خمسين شمعة يضىء بأربعين .

وإن كان المصباح الأول فى نظر الناس أسطع من الأخير .

ما أكثر الذين وهبهم الله طاقات ضخمة وظروفاً مواتية ، فأضاءت نفوسهم من دينه بقدر يحسبه الناس كبيراً وهو عند الله صغير .

وما أكثر الذين وهبوا نفوساً محدودة فاستنارت بصائرهم بقدر من الإسلام ، يحسبه الناس هيّناً وهو عند الله عظيم .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ . وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ »(٢)

للقدر أثر عميق — كما أسلفنا — فى تكوين الإنسان ، وفى مدى ما يزود به من طاقة واستعداد ، وفى تحديد الدائرة التى يكدح فيها ما بقى حيًّا

---

(١) الأنبياء : ٤١ (٢) الحجرات : ١١

ويتوسع علماء الوراثة فى إحصاء ما ينحدر إلى الإنسان من صفات كامنة أو ظاهرة ، ويرجعون أكثر مظاهر السلوك إلى ما ولد به الإنسان من ميول ونزعات .

وقد ثبت أن هناك علائق قوية بين إفراز الغدد فى داخل البدن وبين اعتدال المزاج أو حدته .

فنشاط الغدد الجنسية وما ترسله من « هرمونات » فى الدم ، له دخل كبير فى شدة مقاومة الفرد للإغراء الجنسى أو ضعفه ! ! .

ولمجموعة الغدذ المجاورة للكلى « درنال » أثر فى مقدار تهيّج المرء حين يخاف أو يغضب ، نظراً لما تسكبه هذه الغدد فى الدم من عصارات منشطة للقلب والعضلات .

من أجل ذلك نلاحظ أن الأفراد يختلفون فى ميولهم وانفعالاتهم وتتباين مواقفهم بإزاء ما يعرض لهم من مشاكل الحياة وأعراضها ومفاتنها ومباذلها .

لكن هذه الموروثات المعقدة لن تزيد فى قوتها عن الغرائز العامة .

وهذه وتلك يمكن — كما يقول علم النفس — تعديلها حتى توائم القوانين المشروعة .

فبدلا من أن يهتاج الإنسان للباطل يهتاج للحق ! !

وأما كون هياجه عنيفاً أو خفيفاً فى الحالتين فأمر فطرى لا يعنينا . . وإن كنا لا نغفل حسابه فى تقويم أقدار الناس .

وقد نعيره اهتمامنا عند تحديد المسئولية[1] فى الذنوب المرتكبة .

* * *

ويقول علم النفس : إن هناك مصابين بالشذوذ[2] فى تصرفاتهم .

(١)و(٢) فى مبحث الإيمان والخطيئة شروح طويلة لهذه المسالك وصلتها بحقيقة التقوى .

فيهم المولع بعدّ درجات السُّلّم ، أو قِطَع البلاط ، أو مصابيح الشوارع .

ومما أُثِرَ عن الأديب الإنجليزى « جونسون » أنه لا يمر بحاجز خشبيٍّ إلا لمس بيده كل قائمة من قوائمه . فإذا نسى واحدة عاد إليها ليلمسها من جديد ! .

ومنهم من يفزع من رؤية فَأْر ، مع أنه معروف بالشجاعة .

ومنهم من يميل إلى سرقة أشياء من نوع خاص ، مهما بلغت تفاهتها ، مع أنه من الأغنياء المحترمين !! .

هذه الأمور وأشباهها تدل على أن المرء قد يسلك سلوكا لا يقصده ، وأن فيه قوى باطنة تعمل فى الخفاء .

وكان القدماء يعزونها قديماً إلى التعب أو الخبل أو الألغاز .

ولكن المحدثين يردونها إلى إيحاء العقل الباطن .

وفى مسألة تداعى المعانى يقول علم النفس : إن هذا التداعى كثيراً ما نتحكم فيه ويغلب إرادتنا ويوقعنا تحت تأثير ما نحب وما نكره .

ولا شك أن هذه أحوالا من الكآبة النفسية قد تتوارد على الإنسان من حيث لا يدرى . فتوهى من عزمه .

وربما كانت مثل هذه الحالات هى التى دفعت على بن أبى طالب إلى أن يقول للنبى صلى الله عليه وسلم كلمته[1] السابقة .

وقد رفض النبى قوله لأن قوانين الحياة العامة لا ترتبط بأمثال هذه النزعات الواهنة من تداعى المعانى أو تنافرها ، سواء كانت فى السراء أو فى الضراء .

(١) بحث الاعتذار بالأقدار .

(٥)

العمل أساس الإيمان

آمنت بالله ، أى عرفته معرفة بلغت حد اليقين .

وأسلمت له ، أى خضعت لحكمه عن طواعية وانقياد .

وكلنا الإيمان والإسلام فى نظر الشرع مترادفتان أو متلازمتان .

فحقيقة الإسلام تتضمن أداء العبادات المطلوبة . فهى تصديق بالله وتنفيذ لأمره .

وحقيقة الإيمان تنطوى على المعرفة الصحيحة والقيام بحقوقها .

ومن ثَمَّ فمعنى اليقين ملحوظ فى الإسلام ، ومعنى الخضوع ملحوظ فى الإيمان .

ولا يقبل إسلام خلا عن اليقين ، كما لا تقبل إيمان تجرد عن الخضوع لله !

وقول الله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ : آمَنَّا . قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ[1] » .

فإن هذا الإسلام الذى ذكرته الآية ، ليس الدين الحق الذى عَنَتْه الآية الأخرى .

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ[2] » .

بل هو خضوع عن قهر ونفاق . ولا قيمة له إلا إذا سكن الإيمان القلب وستقر فيه

والإيمان المعتبر ما اقترن بالسمع والطاعة ، وتطهر من الجحود والاستكبار عن أمر الله .

(١) الحجرات ١٤ (٢) آل عمران : ٨٥

« وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »(١) .

* * *

وقد اعتبرت كلمة « الإسلام » علماً على الدين الذى جاء به صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله . وتعارفت الأجيال هذه الحقيقة .

فإذا ذكر الإسلام ، عُرِفَ من هذا العنوان أنه الدين الذى يقوم على اتباع القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ويدخل فيه من شاء من بابه الرئيسى المعروف « كلمة التوحيد » ثم يؤدى بعد ذلك ما يفرض عليه من تكاليف شتى .

على حين توسع العرف العالمى فى كلمة « الإيمان » .

فهناك إيمان مسيحى وآخر يهودى ، وآخر وثنى ، وآخر شيوعى .. الخ .

وهذا العرف العام لا يغض من قيمة الحقيقة الشرعية التى ذكرناها آنفاً ..

فمتعلقات الإيمان ، والدائرة التى نتسع لها فى ديننا ، نجعله لا يصح — فى نظرنا — إلا إذا كان مرادفاً للإسلام ، أو ملازماً له .

ولكن هذا العرف الشائع يؤكد أن الإسلام يرفض رفضاً حاسماً أى مسلك ينطوى على الاستهتار بالأعمال المطلوبة ، والتمرد على شارعها جل شأنه .

ولذلك نعد رفض الخضوع لله خروجاً على الإسلام ، ومروقاً عن الدين ، وهدماً للإيمان ، مهما زعم هذا الرافض من معرفة ويقين .

لقد كان إبليس يعلم أن الله واحد لا شريك له ، وكان يعلم أن مصيره إليه يوم يبعثون .

(١) النور : ٤٧

بَيْدَ أنه لما صدر إليه الأمر : أن اسجد ! فقال — مستكبراً جاحداً — : لا . . عُدّ كافراً ولم تشفع له معرفته بوحدانية الله ، لأن المعرفة المجردة عن مبدأ الخضوع المطلق لرب العالمين لا وزن لها . .

والمعصية التى تقارنها هذا التمرد تخلع صاحبها من الإيمان خلعاً .

والشعور بتلك الحقيقة هو الذى جعل أبا بكر يُسَوِّى بين مانعى الزكاة وبين المرتدين برغم زعمهم أنهم مؤمنون .

فقد صدر إليهم الأمر بإيتاء الزكاة فعصوا ، وشهروا السلاح ، وآثروا القتال على دفع المال .

فساق إليهم الخليفة الأول جيوش الإسلام تَفْلِقُ هاماتهم ، وتلحقهم بإبليس الجاحد المستكبر ! .

وهذا الحكم يسرى فى جميع الأحوال المشابهة .

فإن التأبى عن قبول أمر الله والهزء بالفرائض التى أوجبها ، والفخر بمحرمات التى زجر عنها لا يمكن أن يوصف بأنه خضوع وإسلام ، إلا إذا كانت أحوال الجهال تسمى علماً ، وأحوال الكذابين تسمى صدقاً ! .

وقد ذهل بعض المصنفين فى الفقه ، عن هذا الأصل الراسخ ، فأفتوا بأن الممتنع عن الصلاة يقتل حدًا ، ولا يسمى مرتدًا .

وهذا غلط . فإن الذى يؤثر أن يقتل على أن يُصَلِّى لا دين له ، فكيف يحسب من المسلمين :

أما صلة الإيمان بالأعمال — كما فصلت فى القرآن والسنة — فسنشرحها بعد

الإيمان والعمل

صلة الإيمان بالعمل كصلة الخلق بالسلوك .

فإذا آمن الإنسان بالله العظيم ، وأيقن باليوم الآخر ، وصدّق بما جاء به المرسلون ، دفعه ذلك — لا محالة — إلى استرضاء ربه ، والاستعداد للقائه ، والاستقامة على صراطه .

كما أن الشجاع فى ميادين الخطر نقدم ، والكريم فى مواطن البذل ينفق ، والصادق فى أداء الحديث بتحرى الحق . الخ

وعسير — بل مستحيل — أن يهبط الإنسان بحقيقة الدين عن هذا المستوى ، أو أن يفهم من كتاب الله وسنة رسوله ما يغاير ذلك

بَيْدَ أن أعداء الإسلام — وقد عجزوا عن هزيمته فى ساحات القتال — لم تعيهم الحِيَلُ لسحقه فى عقر داره .

فدسوا على المسلمين من يصور لهم الإسلام كلمة لا تكاليف لها ، وأمانيّ لا عمل معها !

وفى ظل هذا الفهم المعوج ترى المسلم واليهودى والقبطى نعاشرون سنين عدداً ، فلا تستطيع أن تميز أحدهم من الآخر فى شىء .

الكل لا يدخل مسجداً ، ولا نقيم فريضة ولا يحترم لله شعيرة .

والكل يشرب الخمر ويأكل الربا ، ويفجر بالأعراض .

وغاية ما بينهم من فوارق ، أن اليهودى يقدس يوم السبت ، وقد يذهب المسيحى إلى كنيسته خلسة .

أما ذلك المسلم المزعوم فليس يربطه بالإسلام إلا اسم سُجِل فى شهادة الميلاد فحسب

ومؤسف أن أقواماً من أهل العلم الدينى — لا يكترثون بذلك

فالمرء إذا غمغم بين شفتيه بكلمة التوحيد ، تحصن وراءها ، فأصبح يسيرا عليه ، ألاَّ يقوم إلى واجب ، وألا ينتهى عن محرم .

وقد زعم هؤلاء المغفلون : أن الدين ينص على ذلك ! ألا ساء ما يصنعون .

ولو فرضنا أن حزباً مَّا ، تقدم إلى الناس وقد أضاف إلى جملة المواد التى تبين للجماهير منهاجه وتوضح أغراضه ، مادة أخرى تصرح أو تلمح ، بأن لكل منتم للحزب ألاَّ يعمل بمبادئه وألاَّ يتقيد بتعاليمه ، لقال الناس أجمعون : هذا هو العبث والمجون ! .

فكيف نتهم الإسلام بأنه يحمل فى ثناياه ما يهدمه ؟ .

وكيف ننطلق إلى نصوصه نبحث بينها عن (المادة) التى تبيح الخروج عليه واللعب به ؟

وكيف ندعى أن الأعمال أمر كَمَالِىٌّ بحت ، لا يضير نقصانه ؟ .

أولئك هم الحمقى « الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا(١) ».

وعلى رءوسهم يقع التفريط الهائل فى إقامة حدود الله وأداء فرائضه .

وما أصاب المسلمين من كوارث ونكبات عند ما فهموا دينهم على ذلك النحو الأبتر .

أمة تعتبر العمل من (الكماليات) الخفيفة كيف يقوم لها دين ؟ أو تقوم بها دنيا ؟ .

إن الله — عز وجل — جعل العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء ، وجعل السباق فى إحسانه سر الخليقة ودعامة الحساب .

« الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ[1] » .

وما من آية فى كتاب الله ذكرت الإيمان مجرداً ، بل عطفت عليه عمل الصالحات ، أو تقوى الله ، أو الإسلام له ، بحيث أصبحت صلة العمل بالإيمان آصرة لا يعروها وهن .

فإذا عقدت مقارنة بين الهدى والضلال ، جعل الإيمان والعمل جميعاً فى كفة ، وجعل الكفر فى الكفة الأخرى .

« وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِىءُ[2] » .

وكثيراً ما يشار إلى الإسلام وحقيقته الشاملة بمظاهر عملية واضحة محدودة .

« فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ، فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ[3] » .

بل إن العلامة التى ينصبها القرآن دليلا على فراغ النفس من العقيدة ، وخراب القلب من الإيمان ، هى فى النكوص عن القيام ببعض الأعمال الصالحة .

(١) الملك : ٢ (٢) غافر : ٥٨ (٣) البلد ١١ — ١٦

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ . وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ[1] » .

وقد ينظر إلى الإيمان على أنه وصف يلحق الأعمال ويطرأ على السلوك الإنسانى المعتاد ، فيصلحه ويصله بالله ، فيذكر العمل أولاً كما هى مرتبة وجوده ، ثم يذكر الإيمان ثانياً ، على أنه شرط صحته وقبوله .

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ[2] » .

ثم ما الذى يوزن فى الدار الآخرة ؟ . أليست الأعمال التى تميل بالإنسان فى النعيم أو الجحيم أم الدعاوى والمزاعم ؟

« وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ[3] » .

* * *

ونحن نعرف من التاريخ أمماً هلكت بسوء عملها . ونعرف أن الله نقم على قوم لوط — مثلاً — لارتكابهم الفاحشة ، وعلى قوم شعيب — مثلا — بخسهم المكاييل والموازين ، وقد عرفنا مصاير أولئك الفاسقين .

فهل أمتنا — وحدها — هى التى تريد أن ترتكب السيئات ، دون حذر أو وجل . .

ليس الإسلام بدعاً من الشرائع السابقة ، فيوجب الإيمان دون العمل

(١) الماعون : ١ – ٣ (٢) الأنبياء : ٩٤ (٣) الأعراف : ٨ ، ٩

بل إن القرآن الكريم ليقص علينا عِبَرَ السابقين لِنتَّعظ منها ، ثم لنسمع قول الله بعد ذلك :

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا . كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . . . ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ[1] » .

هكذا نمتحن وتراقب تصرفاتنا ، ويكلفنا الله بالإيمان والعمل جميعاً ، ثم ينظر وفاءنا بما حملنا من أعباء !

وقد خاطب الله أبناء آدم — قاطبة — بهذه الحقيقة السافرة ، وأفهمهم — فى جلاء وقوة — أن نجاتهم فى الصلاح والتقوى ، لا فى النفاق والدعوى :

« يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[2] » .

وعندما اهتدى أولو الألباب إلى الحق ، وأعلنوا إيمانهم بالله وهتفوا :

« رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا[3] » .

وعندما تضرعوا يطلبون من الرحمن أن يصفح عن زلاتهم :

« رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ[4] » .

وعندما تطلعوا إلى النصر والتمكين فى الأرض ، والفوز والرضوان فى الآخرة :

(١) يونس : ١٣ ، ١٤
(٢) الأعراف : ٣٥ ، ٣٦
(٣) آل عمران : ١٩٢
(٤) آل عمران : ١٩٣

« رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ[1] » .

مع هذه الحرارة فى الدعاء ، والإخلاص فى التوجُّه ، أعلن الحق أن استجابته مقرونة بالعمل وحده ! وأن الكلام — فحسبُ — لا يروج عنده ! وأن تحقيق هذا الرجاء مرهون بجهاد وتضحيات وتكاليف :

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ[2] » .

إن النصوص الهادية إلى تلازم الإيمان والعمل كثيرة ، يزخر بها القرآن وتستفيض بها السنة ، وتقر الحق فى نصابه ، وترسم لكل مسلم غايته ، وتخط له مكانه ، وتقرع الآذان بذلك الأمر الحاسم :

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[3] » .

لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ

ومن الناس من وقع على نصوص لم يفهمها ، وحاول أن يشغب بها على القواعد المقررة .

وكم تدور على ألسنة العامة أحاديث شتى .

(١) آل عمران : ١٩٤   (٢) آل عمران : ١٩٤   (٣) التوبة : ١٠٥

مثل مارواه أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ رديفه على الرحل قال :

« يَا مُعَاذُ قَالَ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ، ثلاثاً . قَالَ : مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقاً مِنْ قَلْبِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ .

قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَفَلاَ أُخْبِرُ بِهِ النَّاس فَيَسْتَبْشِرُوا ؟ قال :

إِذَنْ يَتَّكِلُوا ! ! .

وَأَخْبَرَ بِهِ مُعَاذ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّماً » .

بهذا الحديث وأمثاله ، تتعلق العامة فى نقض بناء الإسلام ، وهَدْمِ أركانه والتهوين من خطر العمل وآثاره . . وهو تعلق باطل مردود .

قال الحافظ المنذرى : « ذهب طوائف من أساطين أهل العلم إلى أن مثل هذه الإطلاقات التى وردت فيمن قال « لا إله إلا الله دخل الجنة ، أو حرم على النار » أو نحو ذلك ، إنما كان فى ابتداء الإسلام حين كانت الدعوة إلى مجرد الإقرار بالتوحيد .

فلما فرضت الفرائض ، وحدت الحدود ، نسخ ذلك .

والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة .

وإلى هذا القول ذهب الضحاك . والزهرى ، وسفين الثورى وغيرهم .

وقالت طائفة أخرى : لا احتياج إلى ادعاء النسخ فى ذلك .

فإن كل ما هو من أركان الدين وفرائض الإسلام هو من لوازم الإقرار بالشهادتين وتتماته .

فإذا أقر . ثم امتنع عن شىء من الفرائض جحداً أو تهوناً — على تفصيل الخلاف فيه — حكمنا عليه بالكفر وعدم دخول الجنة » .

وذكر السندى أقوالا أخرى تتفق كلها على أن ظواهر هذه الأحاديث غير مراد.

وكيف تعتمد ظواهرها مع ورود مئات من النصوص الأخرى من الكتاب والسنة تربط الإيمان أوثق رباط بأعمال معينة !!.

والواقع أن ما أجمل فى نص فصّل فى نص آخر.

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ ـ مشركى العرب ـ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ ».

فهذا الحديث أحصى أعمالا تذكر فى حديث النطق بالشهادتين، وهو تفسير قول الله تعالى:

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ (١) »

وقوله من قبل:

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ (٢) ».

فمعنى الشهادتين بداية ما بعده من اعتقاد وعمل، لا ما تحسبه الأعصار الكئيبة، وهى مقصرة من أن مجرد نطق فيه الكفاية والغناء.

وحروف هذه الكلمة — كلمة التوحيد — ستفضى بالإنسان إلى تحت رجليه وتوقف نموه. ويتشرب القلب فيها حقيقة التوحيد الخالص كلما صعد درجة وبعد عن مرضه ونجا من مسخطه، فأدى الواجب وترك المحرم.

وإذا ترسخت كلمة التوحيد حتى تطهره كله فعليه تنطق بها الفم.

(١) التوبة ١١ (٢) التوبة ٥

ولكن الشرك توجه الفؤاد من دون الله ، وعمل الجوارح لغير الله .

فإذا لم يسيطر التوحيد على القلب والجوارح ، ويتحول قوة باعثة إلى العمل الصالح فلا قيمة له ! ! .

إن كلمة التوحيد حصانة البشرية من الخضوع للآلهة المزيفة .

وهذه الآلهة ليست حجراً منحوتاً فحسب ، بل كل ما يقطع صلة الإرادة الإنسانية بالله ، ويربطها بغيره برباط الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، والألم والأمل ، فهو ذريعة للشرك .

وهناك ألوف مزقت المعاصي صلتهم بالله شر ممزق ، وظلت أهواؤهم تجمح بهم بعيداً عن الله ، حتى نسوا الله أتم نسيان .

فلو قارنت بين ضمائرهم وضمائر أهل الجاهلية الأولى ، ما وجدت فارقاً بين جحود وجحود ، وكنود وكنود ! ! .

إلا أن هؤلاء نطقوا بكلمة التوحيد ولم يفهموها ، وأولئك فهموها ولم ينطقوا بها .

إن البشرية — بفطرتها — تحلق في أجواء مشرقة من توحيد الله ، فإذا علقت بها حبائل الشيطان ، ورانت عليها أثقال الشهوة ، وزهدت في السماء وطربت إلى الأرض ، ظلت تهبط وتهبط ، وتسقط دون فضل الله وتسقط ، حتى تصل إلى الحضيض .

« وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ[1] » .

(١) الحج : ٣١

م كانت كلمة التوحيد نبتاً مشلولا فى تربة خبيثة .

ولكنها نبت تمتد أصوله فى القلب الخصب ، وتظهر آثاره ظلالا وارفة وثمرات شهية .

تظهر أعمالا طلبها الإسلام وأكدها ، وربط وجوده بنمائها ووفرتها :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[١] » .

وهذه الكلمة ، أعلى عند الله قدراً ، وأغلى شأناً ، من أن يستغلها منافق أو لعوب .

والرجل العقيم من الأعمال ، لا تنفعه دعواه ، ولا يغنى عنه إيمان منتحل :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ[٢] » .

فإذا دلت أعمال المرء على باطن خبيث ، وبين نكوصه عن تحمل المسئوليات وتفقدته فى المواطن التى لا يتخلف عنها مؤمن ، فلم تقف الدلالة على إثم وجدت تزحم سواق الشيطان ويخالف — بأفعاله — أعداء الإسلام لتحقيق ذلك ، ترفض هذا الإيمان ، ولو حلف صاحبه على صحته :

« وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ[٣] » .

ولما كان الإسلام قد قرر ما ينبغى عمله فى كافة الشئون المتصلة بنواحى

(١) إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥ (٢) بقرة : ٨ (٣) توبة : ٥٦ ، ٥٧

الحياة ، من أحكام ومعاملات وأخلاق ، فإن موقف المؤمنين تجاه ذلك واحد لا يتغير ، هو الخضوع المطلق .

فإذا انكشف الغطاء عن غير ذلك ، وتبين من ضلال السلوك ضلال القلب ، فإن الإيمان زعم باطل .

وبهذا المقياس فضح الله طوائف المنافقين الأولين ، وبه — كذلك — نفضح أشباههم اليوم .

أعرف فى إحدى المدن مصنعين للنسيج ، يدير الأول أجنبى يخشى الاتهام بالتعصب ، فهو يأذن لعماله أن ينصرفوا ساعة لصلاة الجمعة .

أما الآخر — ويديره مسلم بالوراثة — فهو باسم إسلامه المدعىّ لا يخشى هذا الاتهام ، فهو يضن على العمال بالوقت الذى سمح به الأجنبى للصلاة ! .

ولعلك إذا جادلته فى هذا الصدّ عن سبيل الله تطاول على الصلاة والمصلين ، ناسباً إليهم كل رذيلة .

أفمثل هذا الوغد الذى لا يكترث بشعائر الإسلام يسلك فى عداد المؤمنين ؟ .

وقد تسمع أحدهم يذكر تشريعات الإسلام فيسلقها بلسان حاد ، وقد يسوقها وينال منها بسخرية .

إن إجماع العلماء منعقد على طرد هؤلاء من حظيرة الإسلام .

وينبغى أن نسرع بغربلة الأمة الإسلامية ، حتى ينفى خبثها ويعزل سقطها ، ويتميز فيها المسلمون من المجرمين والملحدين .

فى ميدان التربية

هذه أحاديث تطيش فيها أفكار العامة .

وينبغى أن نقف قليلا لديها حتى نشرح ملابساتها ، ونذكر المعنى المقصود منها .

والأحاديث فى العفو والعقاب ، والخطيئة والمتاب .

وماذا نصنع إذا كانت الأمة مُبتلاة بمن يهوّن لديها بشاعة الأخطاء ، وفظاعة الجرائم ، مستنداً إلى نصوص لم يفهمها ، وراكناً إلى رحمة لم يتهيأ لها .

وفساد الحضارات الدينية يرجع إلى تكوّن أخلاف من الناس يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه . ويخلطون خلطاً شائناً فى تطبيق أحكام الشريعة على أعمال الجوارح وخطرات القلوب ، ويريدون أن يرتكبوا آثام الملحدين ، وينالوا جزاء الأوابين .

وقد عاب القرآن الكريم على اليهود وعقبهم هذا المسلك الطائش فذكر إقبالهم على دنيا الخطيئة ، وارتباطهم بأعراضها الفانية ، ثم آمالهم الجريئة فى نعيم الآخرة — مع ذلك — ثم زعمهم أنهم بهذه السيرة الحقيرة مستقيمون مع منطق التوراة وهدى موسى — وهذا هو الأدهى — .

ذكر القرآن صورة ذلك ووضعها أمام أعيننا ماثلة .

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ[1] ... » .

(١) الأعراف : ١٦٩

ثم أبان الله لهم — سبحانه — أن للمصلحين أجرهم الذى لا يضيع ، وأن عناصر هذا الإصلاح هى فى التمسك الحق بالكتب السماوية وما تأمر به من عبادة و تقوى ، ومن ثمّ قال :

« وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ[1] » .

ولكن أين تمسك المتدينين بكتبهم ؟ .

بل أين نزول المسلمين على هدى قرآنهم ؟ .

إن جرائم القتل التى تقع بوادينا المسلم (! !) تزيد على ما يقع فى نصف قرن ببلد « كفنلندا » لا يعرف الإسلام ولا غيره من الأديان .

وعلل هذا الهرج كثيرة ، ولكن تفتيت الصلة بين الإيمان والعمل وقطع التلازم بين الجريمة والعقاب ، وسوق نصوص الرجاء للعاطلين ، ووضع الندى موضع السيف .

ذلك كله فى مقدمة الأسباب التى جرّت على الحضارات الدينية هذا الفساد ، وجعل بعض الحضارات الأخرى ترجحها فى ناحية مّا .

ثم الأحاديث التى يخطئ العامة فى فهمها . فقبل أن أسردها أذكر هذا المثل للدكتور عبد العزيز إسماعيل قال :

« شخص يخاف ربه ويطيع أوامره ، لكن حدث له أن وقع مرة تحت تأثير انفعالات نفسية شديدة ضيع معها رشده . فارتكب جريمة قتل . فلما ثاب إليه رشده ندم على فعلته .

(١) الأعراف : ١٦٩ ، ١٧٠

فهذا الرجل ارتكب الجريمة بجوارحه فقط ، ولم يقتل بضميره .

فقد ثبت طبيًّا أن الانفعالات الشديدة تحدث زيادة إفرازات فى بعض الغدد الصماء ، تؤثر على ضغط الدم وعلى المخ .

وقد تحدث تشنجاً عصبيًّا ، أو شللا وقتيًّا فى قوة الإدراك (غيبوبة) يأتى الشخص فى أثنائها من الأفعال ما يستنكره فى حالته العادية » .

هذه الخصلة يظهر فيها قهر القدر الغالب .

وتمحيص حقيقتها من طبيب مختص يفسر لنا مدى المسئولية الأخروية عليهم .

وفيهم وفى من يجرى على نسقهم من أخطاء يصح أن يفسر قول النبى صلى الله عليه وسلم :

« وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » .

ليس هذا الحديث دعوة عامة إلى ارتكاب الخطايا . ولا هو تقرير لبيان حكمة الوجود [illegible] السيئات .

فإن الله — فى كتابه — أظهر لنا الحكمة العليا من وجودنا فقال : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[1] » .

وفى الحديث — شرح للآية — « أيكم أحسن عقلا ، وأورع من محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله » .

الحديث فى حقيقته تعليق على الموجات النفسية التى تجرف فى تيارها [illegible] وتضيع عزائمهم — مهما قويت — أمام عواصف القدر المجتاحة ، [illegible] .

(١) [illegible] ٢

فإذا خرج امرؤ من غمراتها ، وفى رأسه من عمايتها دوار ، واستمع إلى هذا الحديث : « لو لم تذنبوا . . . » كما يستمع المحزون إلى كلمة عزاء .

والحديث مبتوت الصلة بتسلك السفلة ومعتادى الإجرام .

ونحن نحتاج إلى هذا التوجيه النبوى الكريم فى علاجنا لعثرات الشباب . ووقوعهم المنكرر فى مزلق الغريزة الجنسية ..

فكم لنشاط الغدد من آثار خطيرة ! تسكب إحدى الغدد إفرازها دافقا فى الدم المهتاج ! !

فإذا بالرجل لا يكاد يقوم حتى يكبو .

وكأنما يريد ربك أن يجعل من الإنسان العملاق عبداً كسير الجناح ، أمام جبار السموات والأرض ، وحتى تكون آمال الإنسان أعلق بانتظار العفو والتوفيق منها بتقديم الأعمال وشتى الطاعات ..

وقلما يحدث ذلك إلا لذوى المواهب والملكات ، ممن يخشى عليهم الغرور بطاقتهم الواسعة ، لولا ما يعرض لهم من غلطات ، ويقعون فيه من سيئات .

ومن هذا المحدد ندرك سر قول النبى صلى الله عليه وسلم :

« كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَى ، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ . . . الْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى . . وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ » .

هذا الذى كتب هو نزوات الغريزة فى جماحها الطاغى .

ومدى عفو الله فى هذا مربوط بما خرج عن دائرة المجاهدة والتطلع إلى الكمال .

أى أن الشاب مكلف ببذل جهده كله ، فى محاربة الجريمة ، والبعد عن مغرياتها ومثيراتها .

فإذا حدثت مضاعفات فوق الحسبان ، شَرَدَتْ بالمؤمن عما التزمه .

كالسابح الذى يضرب بيديه فى اللجة ، ويدفع صدره إلى الأمام ، ويستهدف الوصول إلى الشاطىء فى بأس وعزيمة .

ثم يظهر له أن جهده يذهب سدى ، لأن التَّيَّار ضده .

فهو مهما بذل لا يعدو مكانه . عندما يحاط بأمر مَّا .

فى وضع شبيه على هذا النحو ، يساق هذا الحديث ، لا لتبرير الخطأ ، ولكن لتيسير الخلاص منه : ومنع الارتكاس فيه .

ثم توجه الإرادة البشرية عندئذ إلى العبادات الإيجابية ، ففيها الدواء لما أصاب من فشل فى العبادات السلبية :

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ »[1] .

والتوسل للأمل فى الخير إن حول الشيطان سدها من ناحية ، فتحت من ناحية أخرى . وبعدئذ :

« وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ »[2] .

والحق أن فعل الحسنات ليس علاجاً فقط للفشل فى ترك السيئات ، بل هو نصر فى توحيد النجاح فى تركها ، والتطهير من أدرانها ، مهما عزَّ ذلك أول الأمر .

(١) هود : ١١٤ (٢) هود : ١١٥

وتلك آية الإيمان .

أما أن نرى قوماً يفعلون الشر ، ويتركون الخير ويزعمون الإسلام فهم كذابون ، وليس في الحديث الآنف ما يصحح إيمانهم .

وهذا حديث آخر ذكره أحد الجهال في تهوين قيمة العمل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال رجل : وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ . وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ » .

والحديث صحيح رواه مسلم ، وأخرج أبو داود مثله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَانَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلَانِ مُتَوَاخِيَانِ ، أَحَدُهُمَا مُذْنِبٌ وَالْآخَرُ فِي الْعِبَادَةِ مُجْتَهِدٌ ، فَكَانَ الْمُجْتَهِدُ لَا يَزَالُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى ذَنْبٍ فَيَقُولُ لَهُ : أَقْصِرْ ، فَقَالَ : خَلِّنِي وَرَبِّي : أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ؟ فَقَالَ لَهُ : وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ، أَوْ قَالَ : لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ . فَقَبَضَ اللهُ أَرْوَاحَهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَقَالَ رَبُّنَا تَعَالَى لِلْمُجْتَهِدِ : أَكُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا ؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي . وَقَالَ لِلْآخَرِ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ » .

هذا الحديث غريب جداً ، ففهموا منه المعنى الوحيد الذي يفهم منه .

وهو : أن الرجل المستكبر بطاعته ، أبعد عن الله من الرجل المستخذي لمعصيته ... وهذا حق . فهناك ممن يلبسون مسوح الدين ، رجال يحسبون أنهم ببعض صلوات أقاموها . قد شاركوا الله في تقرير مصير العبد ، وأنهم يملكون معه مفاتيح الجنة والنار .

وقد رأيت كثيرين من المتصعلكين فى الأندية الدينية ، تنطوى نفوسهم على هذه الجهالة ، وتُعوِزُهم مشاعر الرقة والتواضع .

والحديث المذكور قمعٌ لتطاول هؤلاء .

ومن بقايا المسيحية اليوم ، قد تجد إنساناً كسير القلب لأنه أخطأ ، ذهب إلى راهب فى الكنيسة ، ليقوم بمراسيم الاعتراف الشائعة عندهم .

ولو غصتَ فى أغوار هذا وذاك ، لوَجَدتَ نفسية المخطىء أقرب إلى الكمال الإنسانى ، من نفسية الراهب الذى سيمنحه المغفرة ، وهو مُدِلٌّ مختال .

وإننى فى تجاربى الكثيرة ، ما أزال أشكو قسوة القلب وخلال الفظاظة التى أجدها فى مسلك بعض المنسوبين إلى الدين .

على عكس ما يلمحه المرء أحياناً من تأديب وسماحة فى سير بعض الذين لم يهتدوا بعدُ إلى ما فى الدين من حق وخير وجمال . .

ويستحيل أن يكون الحديث المذكور مناقضاً لقول الله فى كتابه :

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ : إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ! ! أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ، سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ! (١) » .

ونحن نسأل جهال العابثين بالنصوص :

كيف جاز لهم أن يقطعوا صلة الإيمان بالعمل ، والخطيئة بالعقاب ، حجب غشيت على عيونهم ، فلم تر الصواب ، ولم تفقه الكتاب .

(١) القلم : ٣٤ — ٤٠

(٦)
الخطيئة والمتاب

الإيمان والخطيئة

ما ذكرناه من تلازم الإيمان والعمل ، لا يعنى أن الإيمان يقتضى العصمة فإن المؤمن قد يخطئ .

وما يقع فيه المؤمن من خطأ أو خطيئة ، لا يسلخه من الدين .

ولابد من بيان مفصل ، نضم به أطراف هذا الموضوع .

عند ما يكون المرء وثيق الإيمان ، كثير الطاعات ، طويل المراقبة لله ، فإن أخطاءه تقل لا محالة .

وما قد ينزلق إليه من سيئات ، يعتبر غريباً على حياته غرابة الشذوذ بالنسبة إلى القاعدة .

وطبيعة الخطأ من رجل هذه حاله ، تجعل لسيئته صفة خاصة .

فهو لا يقصدها ولا يستريح إليها ، ولا يستقر عليها .

كالسائر فى طريق ما إلى هدفه لا يفكر إلا فى أعماله وآماله ، فإذا بقدمه تخبط فى حفرة غير منظورة ، أو تمر بقشرة فاكهة ملقاة ، فإذا بالمسكين يهتز ويضطرب ، ويهوى إلى الأرض .

إنه يخجل من سقطته ، ويقوم منها شديد الضيق والسخط .

كذلك قد تزل قدم المؤمن وهو سائر فى طريقه إلى الله ، فَيُلِمُّ بعمل لا ينبغى منه ، ثم لا يكاد يتورط فيه حتى ينزع عنه ، وهو بادى الألم ، عميق الحسرة .

هذه السيئات لا تَصِمُ سيرة المؤمن ولا تهدم شخصيته .

وهى من قبيل « لكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة » .

ولما كانت خليقة الإنسان مزدوجة ، يلتقى فيها عنصران ، أحدهما من السماء ، والآخر من الأرض .

فإن آثار هذا الاختلاط تبدو فى سلوك الإنسان .

وليس يستغرب على طبيعته أن تخلد إلى الأرض لحظه ما .

ومن ثَمَّ جعل الله — سبحانه وتعالى — دائرة عفوه تتسع لهذه السقطات: « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ[١] » .

وعلل هذا العفو الكريم بقوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ[٢] » قال الشاعر :

وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَنْزِعَ الْمَرْءُ مَرَّةً ... إِلَى الْحَمَإِ الْمَسْنُونِ ضَرْبَةَ لَازِبِ

على أن هذه المزالق — كما قلنا — تعترى الإنسان وهو فى طريقه إلى ربه ، يؤدى واجبه ويقيم حقوقه ويتحرى رضوانه .

وما يصاحب هذا اللمم من ألم ، وما يسبقه من غفلة ، وما يعقبه من دهشة وغُصَّة . . ذلك كله يكشف سواده ويخفف عواقبه .

وحسب صاحبه من عقاب ، دَوِيُّ هذه السقطات فى نفسه وإسراعه بالإنابة إلى الله يجأر بالدعاء ! !

وفى مثل هذه الحالات ، يساق قوله تعالى :

« وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ؛ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ؛ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا

(١) النجم : ٣٢ (٢) النجم : ٣٢

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ[1] » .

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] » .

والمعنيون بتربية النفوس وتزكية السرائر ، لا يحبون أن يقفوا طويلا عند هذه العثرات العارضة .

وهمهم أن يأخذوا بيد الكابى ، لكى يستطيع النهوض ويستأنف السير ، ويقبل على واجباته بنشاطه القديم أو أشد رغبة .

وتهوينهم من هذه السيئات المقترفة ، لا لأن هذه السيئات تافهة أو مستحسنة ، بل ليخلصوا المذنب من آثارها ، وينفكوه من آصارها ، ويبعدوه من الارتكاس فيها والانكباب عليها .

وذلك أخطر ما نتوقع ، وأول ما يحاذر الشرع منه .

وفى مثل هذه الحالات يساق قول النبي صلى الله عليه وسلم — فيما يحكى عن ربه عز وجل — قال :

« أذنب عبد فقال : اللهم اغفر لي ذنبي . فقال الله عز وجل : أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . . ثم عاد فأذنب . فقال : أي رب اغفر لي ذنبي . . فقال الله تعالى : أذنب عبدي ذنبا وعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . . ثم عاد فأذنب ! ! فقال : أي رب اغفر لي ! ! فقال الله تعالى : أذنب عبدي فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت ، فقد غفرت لك » .

(١) الزمر ٣٣ — ٣٥ (٢) العنكبوت : ٧

هذا الحديث وأمثاله مما يفتح مصاريع التوبة على كثرة العثار ، هو فيمن قدمنا من الناس .

والمراد منه حفز الهمم إلى الصالحات ، والتقصي عن دائرة الجريمة ، مهما حدث من الإنسان ورفع أنظار البشر إلى أعلى ، كلما نكسهم الشيطان . .

وليس المراد منه — البتة — ما فهمه سفهاء العامة من تحقير الجرائم ، وتهوين السيئات ، وإغراء العصاة بالجرأة على المخالفات ، واستباحة الحرمات .

فهذا المعنى نقض لحقيقة الرسالة الهادية ، وتجاهل وقح لآلاف الأحاديث المرهِّبَةِ عن ارتكاب الذنوب .

والتفريط في الأعمال الصالحة — بناء عن فهم معوج لهذه الأحاديث — هو ضلال مبين . !

وليست الخطايا كلها من هذا القبيل . ولا الذين يقعون فيها جميعاً من هذا الصنف .

فهنالك حالات من النزق والسفاهة ، تغوى ذويها بارتكاب الدنايا . وقد لا ينزعون منها على عجل .

على أن الإيمان في نفوس هؤلاء يعانى — لا ريب — أزمات عنيفة .

وبقاؤه أو انتهاؤه . مرهون بمدى ما يصل إليه العصى من بعدٍ عن الله ، واستمراء للخطايا .

ومهما عصى المسلم ، فهو بين توبة سريعة تطهره ، أو توبة مضمرة يستنيم إليها ، ويرتبط بالإسلام على أساسها . !

ومصير أولئك الذين يتدنسون بالمعاصي ويرجئون المتاب منها — مع الإحساس بالخزى وتوقع العقاب — مجهولة !

لأن إلحاح امعاصى على القلب قد يرهق الإيمان و يرد المسلم إلى السكران .

كما ايح المرض احدث على احسم ، فيبرع منه اروح و تتركه حثة باليه .

و . . م كان الأمر ، فإن رباط لمعاصى بالإيمان واه . .

و يستطيع أن تقول : إنه ناى . إلا يوم تقترف الجريمة مصحراً ، أو تترك الجريمة مستمراً .

. ر . . . على الاسلام و . . . ارتداده . .

و . . مصور . . فى مؤمن .

. . . . . كان . عزيمة فى الخير ، فإن تكون ذا عزيمة فى الشر ، . . . . . . معصية وهو . . . صدق . .

و . . . فى كلمة : أن معصية التى تقع من الموسومين بالإيمان ، إنما تصدر عن . . . (ى عن . . . ، وضعف ، وغفلة ، و . . . ، وضعف همة)

. . . على . . . . يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من . . . . يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً . و . . .

و . . . . . السيئات ، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : . . . الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار (1) » .

. . . . على نفسه الرحمة . . من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم . . . . غفور رحيم . وكذلك نفصل الآيات . . . . . .

. . . . (2) . . . ٥٤ ، ٥٥

إن صله الطاعات والمعاصي بالإيمان لاحور سكرهم .

فالأولى عدية مموه و يزده

و الاخرى سموه يضعف هم ويدنى

ومن ... معروض ... محس ... الإيمان لا يختص منه

... مكيف ... شي ... حد ... وحود

حده و سدى

ولا ... سحض ... لا ... حكم ... وستوطا .

ومن ترث لاسس سدى .

ومن ... مرعوه وكبر سكموه

و مكيف ي سرح ... هي ... الوف ... تي قسحم

مس ، و كسب دحه .

ومن ... تسمر غوار الإيمان ، ومدى صلاته ، ومدى استعداد

... وحى ... لاس من حيث بدأ .

...

... لا ... ؛

... وسعمن

سكدين ... حيث ... يسير ...

. تيسكمون[1]

ونصير ... نعص ... ولا ... وحده .

١ ... ١ — ٤

فالأجل طويل والتكاليف متجددة ، والأمر أعقد من أن نصدر بصدده حكماً عامًا .

وفى الحديث : « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُوداً عُوداً ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاء ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاء حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ .

قَلْبٍ أَسْوَدَ مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّياً (مكبوباً) لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ .

« وَقَلْبٍ أَبْيَضَ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » .

وهذا الحديث يبين : أن المعاصى منازل ومزالق ، يسلم بعضها إلى بعض .

وأن الإيمان يتأثر بما يعرض للقلب من أحوال .

فهناك قلوب أقفرت منه تماماً — بإدمان المعاصى والفتن — .

وهناك قلوب فى طريقها ، ثم تقفر بعد ، ويوشك أن تصل .

وهناك قلوب فى أواخر طريق الخير ، وأوائل طريق الشر ، تتأرجح ناحية اليمين أو الشمال .

والحديث يشبه عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً ، كعرض عيدان الحصير ، وهى طاقاتها ، شيئاً فشيئاً .

وقسم القلوب عند عرضها عليها قسمين :

قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب الإسفنج الماء ، فنكتت فيه نكتة سوداء . فلا يزال يشرب كل فتنة عرضت عليه حتى يسود وينتكس . وهو معنى قوله « كالكوز مجخياً » أى منكوساً .

فإذا اسود عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران، يتأديان به إلى الهلاك:
أحدهما اشتباه المعروف عليه بالمنكر. فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.
وربما استحكم فيه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً والمنكر معروفاً:
والثاني تحكيم هواه على ما جاء به الشارع، وانقياده لهذا الهوى،
حيثما ترامى به.

أما القلب الآخر، فهو أبيض، أشرق فيه نور الإيمان. فإذا عرضت
عليه الفتنة أنكرها وردها، فازداد نوراً وإشراقاً.

وفى أحوال الإيمان مع الفتن والمعصى ورد — كذلك — عن النبى
صلى الله عليه وسلم «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ
فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى
تَعْلُوَ قَلْبَهُ».

وَهُوَ الرَّانُ الَّذِى قال الله «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ، كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو
الْجَحِيمِ»[١].

بين التوبة والعصمة

من حقائق التربية النفسية أن الإنسان خَطَّاء، وأن الغلط مركوز فى
طبيعته. يجرى فى عروقه مع الدماء، وأن الله لم يكلف أحداً بالعصمة المطلقة!!
إنما كلف الإنسان إذا أخطأ أن يثوب إلى رشده.

---

(١) المطففين: ١٤ — ١٦

وإذا بدرت منه زلة أن يراجع تفكيره .

وإذا زلقت قدمه ، فكبا ، أن ينهض من كبوته ، وأن يزيح عنا ما علق به ، ثم يستأنف طريقه إلى غايته المنشودة .

ويظهر أن نفس الإنسان كجسمه ، كلاهما يحتاج إلى تطهير دائم .

لأن كليهما ينضح من داخله ، ويتعرض من خارجه ، لما يضطره إلى مداومة الغسل ومتابعة النظافة . . ! !

ففي البدن غدد وأجهزة دائبة الإفراز .

وجو الأرض التي نحيا عليها يكسوه أبداً بالغبار والأكدار .

فكان لابد — لعافية الجسد — من إزالة هذه الأدران كلها .

والنفس الإنسانية كذلك ، تهفو إلى السيئات ، وتنزع إلى الشرور ، وتعرض في مخالطتها الآخرين إلى ضروب من الفتن والمغريات المحرجة .

وهي بحاجة إلى توبة متجددة متكررة ، تمسح عنها هذه الأكدار ، وتمحو عنها الآثار .

هكذا يحتاج الجسد إلى مرات الغسل وضروب المطهرات .

وإلى هذا أشار القرآن في قوله : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (١) » .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجدد التوبة إلى الله ، بين لحظة وأخرى ، وهو يقول : « تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » .

ومدح القرآن الأوابين بهذا المعنى :

(١) البقرة ، ٢٢٢

فقال — عن سليمان — : «نِعْمَ العبدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»(١).

ووصف المؤمنين بأن الله ينقذهم من أوضار الشهوات، وضلال الأهواء ومفاتن الحيرة، ساعة بعد ساعة، لأنهم — ما داموا أحياء — معرضون له في كل حين.

وهذا هو معنى الآية الكريمة: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ»(٢).

على أن الأخطاء الصادرة عن الناس تتفاوت تفاوتاً كبيراً.

فما يعتبر صواباً، يصح صدوره من إنسان يعتبر خطأ، لا يسوغ صدوره من إنسان آخر:

وَيَخْتَلِفُ الرِّزْقَانِ وَالْفِعْلُ وَاحِدٌ ... إِلَى أَنْ يُرَى إِحْسَانُ هَذَا لِذَا ذَنْبَا

وهذا معنى عبارة المتصوفة: «حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ».

والغرض من سوق هذه الحقيقة، أن نحسن الانتفاع بها في ميدان التربية [illegible]، [illegible] شهوات العصاة، وأخطاء المتهورين.

إن كلمة خبيثة قد شاعت بين المسلمين، توهمهم أنه لا يضر مع الإيمان معصية، لا أصل لها، وهي — فضلاً عن أنها أفسدت حضارتهم، وأسقطت دولتهم — أضرت بالإيمان — كوازع خلقي، وحصانة اجتماعية — أبلغ الضرر.

وقبل ذلك أضرت بالإيمان، كفكرة تنير العقل، ويقين يملأ الصدر فمحقته محقاً.

(١) ص : ٣٠ (٢) البقرة : ٢٥٧

ولسنا نزعم أن كسب سيئة يرد المؤمن كافراً فى طرفة عين ، فقضية الإيمان أخطر من ذلك ! .

ولكنا نؤكد أن القلب إذا أحدقت به السيئات وترادفت عليه الفتن ، وطال عليه الأمد ، وهو بين ظلمات معتمة ، لا يخرقها بصيص من متاب .

هذا القلب ينفلت منه الإيمان رويداً رويداً ، حتى يطمس بهاؤه ويرتد صاحبه إلى جاهلية نكراء .

وانظر إلى قوله تعالى : « بَلَى . مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[1] » فإن إحاطة الخطيئة بالفاسدين ، تتأتى على مر الليل والنهار ، وهم يتقلبون فى مهاد الخزى والعار ، فهيهات أن يكون لهم إلا النار وبئس القرار .

أما تفسير كلمة « سيئة » فى الآية بأنها الشرك ، وعبادة الأصنام ، فلا معنى له ، فإن سياق الآية فى مخاطبة أحبار اليهود ، واستعمال اللغة ، واصطلاح الشرع .. ذلك كله ينفى هذا التأويل الذى لا مبرر له .

من مخلفات حرب الجدل

هذه صورة خلقها الجدل المحض ، وثار النزاع فيها نظرياً لا أثارة فيه من رعاية الواقع ، أو استقراء أحوال المؤمنين على ضوء التجارب الصادقة . !

فقد . . ثم اختلفوا فى الإجابة ، : ما حكم المسلم الذى يصر على المعصية ؟ قال بعضهم : كافر .

(١) البقرة : ٨١

وقال آخرون : بل مسلم ، ولا تضر مع الإيمان معصية !

وقال غير هؤلاء وأولئك : بل هناك منزلة بين المنزلتين ! !

وانقسم المسلمون فرقاً منقتلة لهذا الاختلاف الذى يرجع فى أساسه إلى التلاعب بالألفاظ ، والنزوع إلى المراء والتعلق بالجدل .

والحق أن هذا السؤال لا يجوز إيراده . فهو غلط ظاهر فى فهم طبيعة الإسلام .

إن كلمة « إصرار » تعنى توجه الإرادة وانعقاد العزم . وتقدير النتائج المستقبلة ، والسيطرة على البواعث ، والأساليب المقارنة للعمل .

أى أن الإصرار مبارزة لله بالعصيان ، على نحو مقرون بالتحدى وعدم الاكتراث . .

وذلك لا يتصور فى مسلم قط !

نعم قد يعكف بعض الناس على معصية مّا ، لانهيار فى إرادتهم وجماح فى شهواتهم .

وهذا الانكسار فى القوة الإيجابية الدافعة إلى الخير ، لا يسمى ما ينشأ عنه إصراراً على الشر .

إذْ أن المسلم الذى يقارف مالا يليق . لا ينفك عنه شعور قوىّ أو ضعيف ، بالخزى والمعرة .

أما يوم يصل إلى الحال التى يُقبل بها على الكبائر وهو مسرور باسم ، ويترك معها الواجبات وهو مستريح هادىء ، فهو اليوم الذى يتبخر فيه الدين من القلب ، ولا يبقى له بالإسلام سبب ولا نسب .

وهذا الشعور المفروض في المسلم — إذا سقط في كبيرة — هو نواة التوبة المعجلة، والموجة التي تربط الرجل بالإيمان أيّ رباط.

فإذ غاض هذا الشعور، وانفصم ذلك الرباط، فأى إيمان يبقى بعد!

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَمَثَلُ الْإِيمَانِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي آخِيَّتِهِ، يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ آخِيَّتِهِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْهُو ثُمَّ يَرْجِعُ».

وروى: «الْمُؤْمِنُ وَاهٍ[1] رَاقِعٌ[2] فَسَعِيدٌ مَنْ هَلَكَ عَلَى رُقْعَةٍ».

والإصرار حالة تتولد بعد مراحل متطاولة، من إلفِ المعصية، وموت الشعور بما فيها من نكر

وجذور الإيمان — مع الولوغ في المآثم — تتقطع جذراً جذراً، مالم [illegible].

والبحث في هذا الموضوع تكون النتائج فيه بالملاحظة والاستقراء، لا [illegible].

[illegible] صفات من خلقيات مقررة في علم الأخلاق، تستطيع في ضوئها [illegible] مرتكبة، ومراتب مقترفيها، والحكم على أنواع [illegible] ومدى قربهم أو بعدهم من الإيمان والكفر.

ذكر الأستاذ محمد يوسف موسى في كتابه «مباحث فلسفية في الأخلاق» درجات [illegible] مختلفة.

(١) [illegible] (٢) «راقع» أي تائب مستغفر.

فسمى امتداد جذور النبات إلى أدنى ، طلباً للغذاء ، وامتداد الأغصان والفروع إلى أعلى ، طلباً للضوء والهواء سمى ذلك « حاجة » .

وسمى تطلع الحيوان إلى ما به قوام حياته وبقاء كيانه محدود مقومات وجوده ، دون شعور بالغاية المترتبة على تحصيله ، سمى ذلك « شهوة »

ثم رقى عن ذلك الإنسان فنجده يسعى لما يحتاج إليه ، وهو شاعر بتعلقه به ، متصور المنفعة التى تعقب وجوده ، والألم الذى ينشأ عن فقده .

وذلك ما يميزه عن الحيوان ويسمى ذلك فى الإنسان « ميلا » .

ويعرف « الميل » بأنه توجه من الإنسان لشىء متصور بوضوح مع إدراك الغاية المترتبة عليه — وباختلاف غايات الناس اختلفت ميولهم .

هذا غايته الشهرة ، وذاك غايته السيادة ، وغيرهم الغنى وهكذا .

وكل طائفة متشابهة من الميول ، تدور حول غاية واحدة تسمى « عاماً » ومنها تنشأ الرغبة .

فإذا تغلب ميل من هذه الميول على سائر الميول المشابهة ، التى تدور معه فى محور واحد ، وسيطر عليها ، كان ذلك ما يسمى بالرغبة .

فإذا فكر فيما يرغب فيه ، ورآه ممكناً وذلل ما قد يكون بينه وبين نيله من عقبات ، ثم جمع همه عليه لنيل ذلك لاتجاه فسمى « إرادة » .

والفرق بين الرغبة والإرادة ، يتضح من أن الرغبة قد لا ينبوعها لعمل المثمر .

ربما رغب امرء فى أمر يستحيل الحصول عليه .

أما الإرادة فلا تتكون إلا حيث يتروى الإنسان فى الأمر ، ويزن جميع الظروف والملابسات .

ثم بعد ذلك يراه ممكناً فيعزم عليه .

وبهذا يعقبها العمل الذى إذا اعتيد صار خلقاً . .

ويظهر من هذا الخلق عادة للإرادة — وليس مجرد الإرادة — وأن الإرادة تغلب عاملا من قوى النفس على غيره » . اهـ باختصار .

فالإصرار على الكبائر — فى ضوء هذه الحقائق النفسية المقررة — هو نتيجة مقدمات طويلة ، وأطوار يتولد بعضها من بعض فى نظام مرتب دقيق .

فإذا علمنا أن التدنس بخطيئة عقب ميل مفاجئ ، أو رغبة جامحة ، يوقع الإيمان فى مأزق خطير ، ويصيبه بجرح عميق ، مالم يندمل هذا الجرح بتوبة ، وسمعنا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لَا يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِن » . .

فكيف بإيمان ترادفت عليه هذه الجراحات الدامية ، من آثار الذنوب الفاجرة ! .

وكيف يكون حال هذا الإيمان ، إذا اقترن به الميل إلى الجريمة ، ثم ارتقى هذا الميل إلى رغبة ، فإرادة ، فعزيمة صادقة ، فخلق معتاد ، فإصرار دائم ! ! .

هيهات هيهات أن يكون له بقاء إلا فى أوهام المجادلين والعابثين بعلم الكلام . .

على أن الإصرار على الكبائر طبيعة يجب أن تعرف .

فهو لا يمد سحابة الشر حتى تغطى وجه الإيمان الجميل فحسب ! بل يرسب سمومه فى النفس ، فيحول بينها وبين فعل أى خير وتقديم أى بر .

فليس المُصِرُّ رجلا من النوع الذى قال القرآن فيه : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١) .

كلا ، فمعنى الإصرار على الشر ، أن ينابيع الخير جفت تماماً فى الضمير ، فلن يرشح بخير قط .

ومن ثَمَّ استقر الأمر فى علم « الأخلاق » على أن الاتجاه المائع الذى تتأرجح فيه النفس لا يسمى خلقاً .

ويقول الأستاذ « محمد يوسف موسى » : « لا يصح أن نقيم وزناً للرأى القائل : بأن الخلق أمر نسبى ، بمعنى أنه يحكم على المرء بالميل الذى يغلب عليه .

فمن غلب عليه حب الإعطاء ، وأعطى كثيراً ولم يبخل إلا قليلا ، كان كريماً .

وكذلك الصدق والكذب وسائر الفضائل والرذائل .

لا يصح أن نقيم وزناً لهذا الرأى ، ذلك أنه مما لا بد لملاحظته فى الخلق ، الرسوخ ، والثبات ، لخلة نفسية معينة ، حتى تعطى ثمرتها من الأعمال باستمرار .

ويؤيد هذا ما ذكره « ماكيزى » فى كتابه « الأخلاق » :

« إنه لا بد لتكوين خلق من ثبات عالم من العوالم — يعنى المشاعر النفسية » .

« أما مجرد باعث خيِّر ، أو غرض نبيل فى حياة الإنسان ، فلا يكفى جعله فاضلا » .

---

(١) ...

وتطبيقَ هذه القاعدة الخلقية فى محيط الإيمان ، يجعلنا نجزم بأن الإيمان الكامل يقتضى العمل الصالح وجوباً ، وينقص الإيمان كلما نقص العمل .

فإذا لم نجد إلا شرّا محضاً ، جزمنا بأن ظل الإيمان قد تقلص ..

ولذلك قلنا : إن الإصرار — بمعناه الشامل — لا يتم فى نفس مؤمنة أبداً .

* * *

وإذا أحصينا النصوص الواردة ، والتفاسير الصحيحة لها ، وجدنا أن الشرع الشريف ، يهتم بالبواعث المقارنة للعمل ، اهتماماً شديداً ، ويبنى الحكم على الإثابة والجزاء ، بعد التأكد من الحالات النفسية ، التى لا ينفك عنها العمل ، والتى يقطع العمل أو يتكرر لارتباطه بها .

وقال ابن قتيبة شارحاً لقوله تعالى : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى »[١] .

يجوز أن يقال عصى آدم ، ولا يجوز أن يقال عاص .

لأن العاصى من اعتاد فعل المعصية .

كالرجل يخيط ثوبه يقال له : خاط ثوبه ، ولا يقال : هو خياط حتى يعود ذلك مرة بعد مرة .

والمعصية لا تأخذ صاحبها وصفاً يسجل عليه الشر . ولو أنه فعلها ! !

ويسجل الإثم والعقاب عَلَى شخص آخر لم يفعل الجريمة ، ولكنه عزم عليه .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِى النَّارِ . قِيلَ : هَذَا الْقَاتِلُ ؟ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ ؟ قَالَ : إِنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » .

[illegible]

إن للنية المصاحبة مدخلاً كبيراً فى الحكم عَلَى الأخطاء والخطايا .

ولا نحب أن نغفل فى تقديرنا لأثر المعاصى فى الإيمان .

١ — أن المعاصى ليست سواء فى تهوين الناس بها وبالاتهام بها ، فجمهور المسلمين فى بلادنا . لا يطعم لحم خنزير مثلا . ويستغنى عنه فى يسر وثقة بحكم الفطرة والعادة .

وجمهور الفقراء ، لا يلبس حريراً ، ولا يتحلى بالذهب . فإذا كان لحم الخنزير أو لبس الحرير — مثلا — من المناكر التى حرّمها الإسلام ، فإننا نلاحظ أن طبيعة هذه المحرمات تغاير المعاصى القائمة على دسائس الشهوة الجنسية مثلا . وما أكثر التعرض لها .

٢ — أن هناك بيئات تعين على العصمة ، وأخرى تغرى بالفاحشة .

وقد يوجد أقوام لا يسعون إلى الجريمة : فيبوءون بمجتمع دنس يسهل لهم الانزلاق .

وقد تتمنى قوم الشر ، بَيْدَ أنهم يجدون الأبواب إليه موصدة فى بيئة محافظة معصومة مأمونة .

٣ — أن درجات سقوط النفس تتفاوت .

فالذى يَهْوِى من قمة مشرفة غير الذى يسقط وهو يسير ، غير الذى يتردى فى حفرة عميقة . .

كذلك السقوط فى المعاصى .

فقد يقترف الشخص الذنب عن ميل عارض وفرصة مواتية .

وهذا غير من يقع فيه عن رغبة ملحة ، وذلك غير من يسعى إليه عن إرادة يقظة .

وهؤلاء غير من يعزم على الفعل و يستمرئ العودة إليه ، ويدأب على ارتكابه حتى يصير فيه خلقاً . .

٤ - إن الدنايا نفسها حلقات موصولة .

فالكاذب يخون ، والخائن يرتشى ، والمرتشى يهدم المصلحة العامة ويبيع وطنه وشرفه ودينه لأول مساوم .

والسكّير يزنى ، والزانى يقتل ، والقاتل يستحيل إلى وحش لا دين له إلخ .

* * *

والحق أن مدلول كلمة « معصية » فى أفراد الناس وأحوال الحياة ، تتفاوت تفاوتاً واسعاً .

فكما تدل كلمة « سفر » على الرحلة القريبة ، والطواف حول العالم .

وكما تدل كلمة « مرض » على الصّداع العارض والحمى المهلكة ، كذلك تدل كلمة « معصية » على طرفين متباعدين .

لا لأن المعاصى تنقسم إلى صغائر وكبائر ، بل لأن الكبائر نفسها — بما يكتنفها من مشاعر نفسية — ليست سواء .

ومن الخطأ الكبير أن تقول — مع المرجئة — : إن الإيمان لا تضر معه كبيرة . أو تقول — مع الخوارج — : إن الكبيرة لا يبقى معها إيمان .

ولعل دقة الظروف الملابسة للمعاصى هى التى جعلت الناظم القديم يقول :

ومن يمت ولم يتب من ذنبه　　فأمره مفوّض لربه . . ! !

بتأثير ما ثبت فى قول الله تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ . وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً[1] » .

(١) [illegible] ٤٨

والآية تشير إلى أن الشرك لا يغفر .

وهناك أمور مساوية للشرك كجحود الألوهية . أو الاعتراف بها وجحود أوامرها ، ورفض الانصياع لها .

وما دون الشرك صنوف كثيرة قد تهبط إلى نحو مغفور . وقد تفحش حتى تمحق الإيمان كما تمحقه بيانه .. ولا تكون دون الشرك أبدا .

وفى الحد الفاحش من المعاصى يساق قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ[1] » . « وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا[2] » .

وفى الحد الأدنى يقول تبارك وتعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ[3] » .

هل المعصية مرض

فى أحيان كثيرة نتجه البحث العلمى إلى اعتبار عوج السلوك وارتكاب المحظورات ظواهر لأمراض نفسية كامنة ! .

وفسر وقوع الجرائم على أنه أعراض تستوجب العلاج الحكيم ، للاضطرابات النفسية والعصبية التى تختفى وراءها ..

وعَدُّ العصيان مرضاً يجب التفكير فى مداواته . قبل عدّه جريمة تستوجب القصاص من صاحبها . أمر يستحق النظر العميق على ضوء التعاليم التى جاء الإسلام بها ! .

(١) النساء : ١٤ (٢) الجن : ٢٣ (٣) آل عمران : ١٣٥

وقد تسأل : هل المعصية مرض حقاً ؟

والجواب أن تعابير القرآن الكريم فى غير موضع واحد تبيح لنا أن نقول : نعم !

ففى سورة البقرة وصف النفاق بأنه مرض : « فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً[1] » .

ومرض القلب هنا ليس سرعة نبض ولا بطء خفقان بداهة ! !

وفى كثير من السور شاع هذا الوصف حتى لقد تكرر فى سورة الأحزاب ثلاث مرات ، ويدل اختلاف السياق على اختلاف المقصود به .

ففى النصح لأمهات المؤمنين يقول الله عز وجل :

« إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ[2] » .

والمراد بالمرض هنا ما يتخلف فى نفوس الناس من اضطراب الغريزة الجنسية اضطراباً يجعلها تطمع فى غير مطمع ويشرد زمامها حيث يجب أن تقف وتستكين !

والله عزَّ وجل يريد لنسوة نبيه منزلة تعلو على هواجس النفوس .

فلا عجب إذ صانهن عن آخر ما تصل إليه الأمانى المحرمة للنفوس المريضة ..

وقد ثبت أن الشهوة الجنسية أساس لعدد هائل من الأمراض الفكرية والعصبية والخلقية ! .

(١) البقرة ١٠ (٢) الأحزاب ٣٢

وفى موقف الضعاف والمترددين عند هجوم الأحزاب على المدينة وإحكامهم الحصار على من فيها يقول القرآن الكريم :

« وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا[1] » .

وقد سبق وصف المنافق بأنه مرض .

وجرثومة هذا المرض تنمو مع ضعف الشخصية وانحلالها .

فترى المرء يلقى هؤلاء بوجه ورأى ، ويلقى أولئك بوجه ورأى ، حتى إذا مرد على ذلك أصبح إخصائيًّا فى العيش بشخصية مزدوجة .

وقد بلى المجتمع الإسلامى الأول بحزب ضخم من المنافقين كانوا شرًّا عليه من الكافرين الصرحاء .

وهذه الآية قد يكون معناها : وإذ يقول المنافقون الذين فى قلوبهم مرض .

فهى صفات متعاطفة يكشف بعضها خفاء البعض .

أو يكون الذين فى قلوبهم مرض صنفًا آخر من الناس ، أشبهوا المنافقين فى جزعهم من الأعداء . وجبنهم عند اللقاء وشكهم فى أمر الرسول وعاقبته ؛ فالتحقوا بهم وصاروا لذلك منهم .

والذين تظهر عليهم أعراض المرض يعزلون مع المرضى إلى أن تتميز أحوالهم .

وقد جمعت سورة الأحزاب هذه الأصناف كلها فى قوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

(١) الأحزاب : ١٢

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا[١] » .

وقد جاء هذا التهديد بعد أمر عام لنساء المؤمنين بالاحتشام التام فى ملابسهن مما يدل على أن المقصود بالذين فى قلوبهم مرض هم الشبان المتسكعون فى الطرق المتتبعون للعورات .

وتحفظاً من هؤلاء أنزل الله الآية السابقة : « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ[٢] » .

والأمراض النفسية تتفاوت خفة وحدة ، ويتفاوت معها ما ينشأ عنها من مخالفة للشرع والقانون ، وشذوذ عن العرف والتقاليد الفاضلة .

على أن المجرم مهما كان مريض النفس فلا يمكن إخلاؤه من المسئولية الجنائية وتركه طليقاً دون أية مؤاخذة .

والإسلام ينظر إلى هذه الأحوال المرضية نظرتين مختلفتين .

فهو يضع الحدود والعقوبات التى لابد منها لصيانة المجتمع وتدعيم أركانه وتقرير فضائله والمحافظة على مُثُلِهِ العليا والمغالاة بقيمها وقمع من يستهين بها ومن ثمة فهو يجلد ويرجم ، ويقطع ويقتل .

ولكنه — إلى جانب هذه النظرة الصارمة — يرسل نظرة عطف إلى المجرم نفسه على حسب أنه مريض .

فهو يجتهد فى تخفيف عنه ويجعل القاضى أن يخطىء فى العفو خيراً من أن يخطىء فى العقوبة ويأمر بالدعاء له ، لا الدعاء عليه .

(١) الأحزاب : ٦٠ (٢) الأحزاب ٥٩

وقد حدث أن جيء بسكير إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليؤدب على سكره فقال أحد الجالسين : لعنة الله عليك ! ما أكثر ما يجاء بك ! .

فقال صلى الله عليه وسلم : لا تلعنوه ؛ فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله .

وفي رواية أخرى : لا تقولوا هذا ، ولكن قولوا : اللهم ارحمه . اللهم تب عليه .

وهذه النظرة الرحيمة هي التي أوصت بالستر على المخطئ ، وإعطائه الفرصة التي يصلح بها نفسه ، والتشفع له قبل أن يصل الأمر إلى القضاء ، عسى أن يرجع عن غيه . و يبرأ من علته .

وأولى الأمراض النفسية ظفراً بالرحمة والعطف في دين الله هي الأمراض التي تصيب الإرادة الإنسانية في محاولاتها المتكررة المتعثرة أن تصل إلى الكمال المنشود ! .

فإن المرء إذا طلب السمو بنفسه عن الدنايا ؛ لاحقته من طبيعته الأرضية نزعات شتى قد تزله عن الخير ، حتى يكاد ييأس من بلوغه ، فتمرض إرادته و يضعف عزمه .

وهنا يتدخل الدين بتعاليمه ليعيد إلى الإرادة صحتها وقوتها ، حتى تسعى بصاحبها إلى الكمال ما دام حياً .

وفي ذلك الموضع الدقيق من علاج النفس ، تساق أحاديث الرجاء وآيات الرحمة ، والنصوص الكثيرة التي تفتح عيني الإنسان على آفاق بعيدة المدى من غفران الله ورضوانه . والتي لا تسد منافذ الأمل أمام نفسه أبداً .

مثل قوله تعالى للعصاة : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا [1] » .

وأمثال هذه البشارات الرحبة يظنها القاصرون ذريعة إلى التقصير فى العمل والاستهانة بالخطأ ، وهذا وهم مغرق فى الضلال

فما قصد بهذه النصوص إلا تشجيع المجاهد لهواه على المضى فى طريقه ، لا تقفه عثرة ولا تلويه عقبة ، ولا تنكسر عزيمته فى الخير لكثرة ما اقترفت من الشر ، ولا يقنط من رحمة الله — مهما صنع — ما دام يريد استئناف حياة أنقى وأفضل .

وبهذا الضوء تدرك العلاقة بين النصوص الكثيرة التى تجعل العمل كل شىء فى الدنيا حيناً ، والتى تسوق العفو والمغفرة حيناً آخر على اليسير من الأمور .

وخير ما نستصحبه فى ملاحظتنا على أحوال الناس قول عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تنظروا فى أعمال الناس كأنكم أرباب ، بل انظروا فى أعمالكم على أنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان : مبتلى ومعافى ، فاعذروا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية » .

وللإسلام تعاليم إيجابية لكى يكتسب المؤمن منها صحته النفسية ، وعافيته الروحية .

ويخطئ من يحسب العبادات التى شرعها الإسلام ضرباً من الطقوس التى تؤدى فى جو من الغفلة السائدة والفناء فى مجهول غير مفهوم .

فإن الفرائض الأولى فى الإسلام تقوم على اليقظة العاطفية والعقلية . وقد

تحظى بالقبول إلا إذا تركت أثراً غائراً فى القلب واللب ! .

ومن ثمّ فالعبادات التى كلف بها المسلم أساس مكين لصحته النفسية .

والحكمة المذكورة فى تشريعها أنها وقاية من الأوضار والأوزار ، وأنها — إذا وقع المرء فى خطيئته — نظافة تغسل الروح مما لحق به من فتن وذنوب .

وكلا الأمرين — من وقاية ونظافة — سبيل العافية والبعد عن الأمراض النفسية ، أى عن المعاصى والسيئات .

إن التعبد بتلاوة القرآن مثلا ليست الغاية منه ترديد الألفاظ المقدسة ، بل المقصود أن يتصل الروح بالوحى لينتعش ويتطهر ويترفع حين يناجى الله عن الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى :

« وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[1] » .

والتعبد بالصلاة منهاة عن الآثام ، ومطردة للوساوس الصغيرة ، ودواء للعصيان إذا مس المرء عارض منه

ومن الكلمات الحكيمة : « إذا لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر » وبهذا المبدأ وقى الإسلام الفرد والمجتمع من أمراض نفسية جائحة .

فإن الفرد العاطل والأمة التى لا رسالة لها مرتع خصب لأخبث الأمراض العقلية والقلبية .

ولو اشتغل المجتمع المسلم بما طولب به من جهاد دائم ، وما كلف به من صلوات جامعة ، لما وجد متسعاً من الوقت لجرائم الفراغ والتبطل ، ولانحلت عقد كثيرة من تلقاء نفسها فى ميادين العمل السامى إلى الأهداف المرسومة .

(١) الإسراء : ٨٢

وعندى أن كثيراً من معاصى الأفراد يقع قسط كبير من وزرها على الدولة ، لأنها لا ترحم حياتهم بما يصرفهم عن الموبقات .

إن الأمراض النفسية التى يشرد بها السلوك الإنسانى كثيرة .

ولو استمعنا إلى آراء علماء النفس لما نجا أحد من الاتصاف بعقدة كامنة أو لوثة خفية أو داء نفسى دفين .

غير أن هناك فارقاً بين أن يوصم المرء بالجنون مثلا ، وبين أن تصدر عنه أفعال تعد شعبة من الجنون .

ويقال للإنسان — إذا صدرت عنه — : أما بك عقل ؟ وقد قال الله تعالى لأحبار اليهود :

« أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[1] » .

والأمراض النفسية تتفاوت شدة وضعفاً . وهى فى بداياتها غيرها فى نهايتها .

ومنها ما تكون الإصابة به كالوباء العام ، ومنها ما يقع فى حدود وظروف ضيقة .

وأكثر الأمراض النفسية شيوعاً ما ينشأ — كما ذكر القرآن فى غير موضع — عن اضطراب الغريزة الجنسية ، أو عن الشعور الإيجابى أو السلبى بالذات — كما يعبر علماء النفس .

وهذه الاضطرابات النفسية أطوار ومضاعفات ليس هنا موضع البحث فيها .

(١) البقرة : ٤٤

ومن مرض الغريزة الجنسية تتولد الجرائم المسببة للزنا واللواط والسحاق والتعشق الخيالى والتذلل للمحبوب . الخ .

ومن مرض الشعور الإيجابى بالذات نشأ الفخر والخيلاء والتكبر وجنون العظمة .

ومن مرض الشعور السلبى بالذات تتولد مركبات النقص والتلوّن والملق ، وقد يكون الإحساس بالضعة باعثا على الكبر والفخر بشكل حاد مثير .

* * *

والإسلام — كما قلنا — يتعهد النفس بالعبادات فيحصنها ضد هذه الأمراض .

ويخفف من آثارها إذا أصيبت بها .

ولا يزال يعالجها حتى يشفيها أو يقارب ، على قدر أخذ الإنسان نفسه بالمجاهدة والتربية .

ولسنا ندرى من أحوال الجرائم والمخالفات إلا ظواهر يسيرة .

ولسنا نجرؤ على إصدار حكم عام فى هذه الأمور .

وقد نستطيع تحديد مصير الناس فى الدنيا بما يظهر لنا أنه إيمان ، أو فسوق وكفران .

أما مصير الناس فى الآخرة فإلى الله وحده .

والقول بتخليد العصاة فى جهنم أو العفو عن البعض والتنكيل بالبعض الآخر إلى حين ، نقترن بهذه الملابسات التى أطلنا سردها ، ورفضنا إخضاع حكم فيها للجدل والسفسطة وألاعيب المنطق القديم .

وفى ذلك يقول زميلنا الفاضل الأستاذ إسماعيل حمدى من بحث طويل :

العدل كمبدأ ، والعقاب كجزء منه ، لا مناقشة فيهما إذن .

ولكن أى المجرمين ينبغى أن يتجرد له العدل ؟ وأيهم يعامل بالعدل مع الرحمة ؟ وأيهم هو المريض الذى تتجرد له الرحمة التامة ؟ إنهم مختلفون بلا ريب .

فصور النفوس أشد تنوعاً من صور الوجوه ، والإرادة والوعى ههنا أساس التنوع والاختلاف .

فامرؤ نقارف الجريمة مريداً واعياً يبصر آثارها كاملة ، ويقدر على محاسبتها تماماً ، ويرتب وسائلها ويهيئ ظروفها ويستعد لمفاجآتها — غير امرىء تسيطر عليه إحدى العواطف الحادة كالغضب أو الحب أو القرابة فيتورط فى جناية مندفعاً إليها اندفاع المنقوص الإرادة والوعى معاً .

وكلاهما غير ثالث أعوزته أسباب القوت فسرق ، أو أسباب النشأة الصالحة والتربية الضرورية ففسد .

لا حاجة بنا إلى بيان ما يستحقه كل نوع من هؤلاء ، فهذا واضح كل الوضوح .

وإذ كان قضاء البشر لا يأبى الرحمة على من يستحقها كاملة ، ولا العدل على من يستحقه مجرداً ، ولا هما معاً على من يستحقهما معاً ، لأن واضعى القوانين ، والقضاة الذين ينفذونها ، لا يصنعونها ، ولا يحكمون ، وهم آلات صماء .

وإنما هم بشر ، فيهم ما فى البشر من صفات يستوحونها .

وتظهر — حتما — فيما يصنعون وفيما يحكمون ، بل المفروض أنهم من أرقى البشر .

فصفاتهم من العدل والنزاهة والعلم بالأنفس وتقدير البواعث والرحمة وما إليها من أرقى الصفات .

والقرآن يتحدث بحديثه الفيض عن صفات لله هي مثال الأعلى ، من علمه المحيط بمن خلق . وعدله المصلح الذي آثره نفسه ، وأمر به الناس ، ورحمته الواسعة ، وإحسانه جميل ، وعفوه السميح .

وهي صفات من الأدب أن نقول إنها غير عقيمة ، أو غير سببية ، أو غير موقوتة بهذه الحياة الدنيا .

فنحن — بهذا القول ومثله — نقدرها حق قدرها ، لأنها صفات إلهية ، فهي عاملة دائبة ، وهي مباركة منصبة ، تتناول الدنيا والآخرة .

ومعاملة الله للناس فيما يشرع لهم ، وفيما يقضي بينهم ، لا بد أن تكون مظهراً تظهر فيه هذه الصفات ، ومجالا تبدو فيه آثارها الجميلة .

فالظروف المخففة التي تقضي باستعمال الرأفة كما يعبر رجال القانون ، والبواعث المحزنة التي تثير في القاضي عواطف الطبيب الرحيم ، كما يكون لها تقديرها عند البشر يكون لها كذلك تقديرها عند الله .

ولله أمن وأفضل ، وله مثل الأعلى في السموات والأرض .

إن الإيمان يستنزه العمل كما يستنزه النهار الضوء .

وقد يثور في رائعة النهار غبار يحجب الأفق ، أو تتكاثف غيوم تملأ الأرض بالظلال .

بَيْدَ أن ذلك لن يرد النهار ليلا ، إذ هو عرض زائل ، طال أمده أم قصر ، فلن تلبث أشعة الشمس أن تغمر الأرجاء بالدفء والضياء .

كذلك نور الإيمان قد تحجبه إلى حين غيمة من شهوة عارضة ، فتغيم

جواسب النفس حتى لا يكاد المؤمن يرى النهج . ثم يعمل الإيمان عمله فإذا بالأمر كما قال الله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ[1] » .

أما الظلام المطبق للمعاصي الدائمة . فذلك حيث يخيم ليل الكفر ، وتغيب شمس الإيمان . و يفقد المرء حاسة البصر تماماً ، فهو لا يعرف لله طريقاً :

« وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا »[2] .

* * *

إن قصة الخطيئة الناجية كما مثلها أبونا آدم « خطأ ومتاب » .

وقصة الخطيئة الهالكة كما مثلها إبليس « جريمة و إصرار » .

فاحترز لنفسك ما يحلو . ونفس الحساب من مغالطات المنطق والملاعب مخصوص . وسلمه إلى الله وكفى بالله حسيباً .

(١) الأعراف ٢٠١ . (٢) الإسراء ٧٢ .

(٧)
خلافات لا مبرر لها

إذا نشب خلاف على مسألة مّا بين علماء مخلصين فإن هذا الخلاف لن يطول أجله.

وإذا قُدر له أن يطول فلن يترك فى النفوس حقداً، ولا فى الصفوف صدعاً.

وإذا حدث من ذلك شىء فلا بد أن يكون لأسباب مصطنعة بعيدة عن دائرة العلم، أو عن دائرة الإخلاص، أو عن كلتيهما جميعاً.

وقد تجد وراء كثير من ضروب الخلاف، أشياء كثيرة تغاير البحث المنزه فى العلم، والإخلاص المجرد للحق.

ولو ماتت أهواء النفوس وشهوات الغلب وامحّت الأغراض الدخيلة من وراء إعلاء رأى ونشر مذهب لبادت عشرات من الفِرق يوم ولدت، ولبقيت فى نطاق لا يعدو صفحات الكتب وحلقات الدرس، كآراء تشتجر فى ميدان النظر الحر، وتنتهى ضجتها بانتهاء النقاش فيها.

إن سعة العلم تمد برحابة الأفق، وإن حسن النية يلد رحابة الصدر، وإن الإيمان المحض يمد بالحفاظ الدقيق على وحدة الأمة.

فأنّى يتسرب الشقاق إلى دين يقوم على هذه الحقائق؟.

ومن ثَمّ حسم الله — جل وعز — صلة أتباع الهوى وهواة التفرقة بصاحب الرسالة العظمى، فليس منهم وليسوا منه.

وسوف يقوم حسابهم يوم ينقلبون إلى الله العليم بذات الصدور.

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[1] ».

(١) الأنعام : ١٥٩.

وقد تسأل : لـكن المسلمين اختلفوا فرقاً كثيرة ، وقد اشتغلت هذه الفرق بالجدل قروناً طويلة . فـكيف نتفق هذا الواقع مع المبادىء التى مهدتها ؟ ! .

ونحن لا نبالى أن ندفع بالحق المجرد من نسـكبوا سببه .

فإن معظم الآراء التى ظهرت بها هذه الفرق حدث مثله فى العصر الأول بين فقهاء الصحابة وطرح على هامش المجتمع الإسلامى فلم يعد قدره ، ولم يثر تعليقاً يذكر .

* * *

خذ مثلا رؤية الله فى الدار الآخرة ، فإن هذه المسألة تطاحن عليها المعتزلة وأهل السنة ، وتنابزوا بالألقاب ، وملأوا بها المحافل والأسواق ! ! .

مع أن هذه المسألة ثار حولها كلام خفيف فى المجتمع الأول ثم مر ولم يعقب شحناء ، ولا بغضا .

كان ابن عباس وجمهور الصحابة يجيزون الرؤية ولهم فى ذلك أدلة . وروى أن الرسول رأى ربَّه ليلة عُرج به .

وكانت عائشة تقول : لم ير رسول الله ربه .

عن مسروق : قلت لعائشة : يا أماه . هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قفَّ شعر رأسى مما قلت . أين أنت من ثلاث من حدثـكهن فقد كذب ؟ من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[1] » .

ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ[2] » .

(١) الأنعام : ١٠٣ (٢) لقمان : ٣٤

ومن حدثك أن محمداً كتم أمراً فقد كذب، ثم قرأت: « يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ[(١)] »، ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين.

وعن أبى ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: « هل رأيت ربك؟ قال: نور أنّى أراه؟ ».

والتوفيق بين هذه الآراء المتقابلة سهل.

وقد مرّ بها الصحابة الأولون فلم يجدوا فيها ما يحبسهم عندها، ولا ما يقيد أفكارهم بإزائها، ولا ما يشغل العوام بالخوض فيها أو الخواص بالتخاصم عليها، حتى جاءت — بعد — أيام الفراغ والهزل فتألفت فرق للمتاجرة بهذا الخلاف.. وإليك مثالا آخر:

يرى ابن عباس وزيد بن ثابت وابن مسعود أن قاتل النفس متعمداً لا توبة له، ويستشهدون بقوله تعالى: « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً[(٢)] ».

روى عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أَلِمَن قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ قال: لا. فتلوت عليه الآية التى فى الفرقان:

« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ.. إِلَّا مَنْ تَابَ[(٣)]. » فقال هذه آية مكية نسختها آية مدنية.

وقيل: إن آية الفرقان نزلت فى قوم اقترفوا هذه الذنوب قبل إسلامهم وقال ابن عباس: « فأما من دخل فى الإسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له ».

وروى مثل ذلك عن زيد وعبد الله.

(١) المائدة: ٦٧ (٢) النساء: ٩٣ (٣) الفرقان: ٦٨ — ٧٠

وجمهور الصحابة يرى أن للقاتل توبة ، وأن القتل ليس أشنع من الكفر والله يقول لنبيه :

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ(١) » .

واختلاف الأنظار طبيعة البشر . وقد تفاوتت أحكام الصحابة فى هذا الأمر ، وفى أمور أخرى مشابهة .

ومع ذلك فإن هذا الاختلاف مرّ على هامش المجتمع ، فما غامت له حياتهم ولا طاش فيه حجاهم .

* * *

ولكن الخلاف يعظم و يشتد عندما يدخل فى الميدان عنصر غريب على العلم والإخلاص والإيمان .

أى عندما يتدخل حب الرياسة ومكر السياسة وعبث الحكام . . ! !

عندئذ تتحول الحبة إلى قبة ، وبدلا من أن يجلس جماعة ليتجاذبوا أطراف الحديث فى سكون ودعة ، إذا بأطراف الحديث تشدها أيد مدججة بالسلاح ، من ورائها عقائر تنشق بالغضب والصياح

وقد فتقت مذاهب شتى للخلاف . وأمدتها السياسات الخبيثة بما يزيد هوة الاتساع . ثم تورت على مر الأيام هذه المذاهب ولم يبق من خلاف بين المسلمين اليوم إلا ما ترى من أهواء السياسة الدنيئة أن تبقيه أبد الدهر ، هو الخلاف بين الشيعة والسنة ! !

وقد اشتعلت خلافات فى مسائل العقيدة ثم انطفأت ، ونشبت خلافات أخرى فى فقه الفروع ولم يهتم المسلمون لها ، ولو حققت ما يقسم فريقاً من المسلمين اليوم إلى سنة وشيعة لما وجدت شيئاً ذا بال .

(١) الأنفال : ٣٨

ولكن عصبيات الأسر ، ومنافع الأحزاب ودنيا الرؤساء المفتونين ، وسداجة العامة المغلوبين تريد لتبقى هذه الوقيعة فى صفوف الأمة الواحدة كى تعيش باسمها !! .

* * *

هل سمعت أن حزباً تكوّن فى « إيطاليا » لتأييد « أنطنيوس » و « كيلو بطره » ، وأن حزباً آخر تألف للدفاع عن « إكتافيوس » ؟ وإذا حدث أن هذه المساخر قد تحددت بعد دروس ، ونشرت من أكفانها بعد بلى ، وأن أحزاباً قامت لتسوس إيطاليا الجديدة بذكريات حدثت من عشرين قرناً ، فماذا يكون حكمك على مثل هذه الأمة المسكينة .. ؟

إن المسلمين اليوم يفعلون هذا المنكر ! إنهم يريدون بناء حاضرهم على عقائد تنتزع انتزاعاً من خلافات بالية .

وقد ماتت عشرات من المذاهب المنتحلة بموت السياسات التى رحّبت بها وأعاشتها فى حضنها .

وما زالت إلى يومنا هذا سياسة الحكم الفاسد تعمل عملها فى العقيدة الممدة لتجعل من المسلمين الموحِّدين فرقاً تتنازع ، على ماذا ؟ على الوهم .

وإنى أهيب بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يعودوا إلى كتاب الله وسنة رسوله . وألا يسمحوا للمغرضين والطامعين أن يستغلوا تفاوت الأفكار فى أمور يسيرة ليقطعوا ما أمر الله به أن يوصل .

وفى الماضى عبر عظيمة وفى حاضرنا عبر أعظم .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[1] » .

(١) ق : ٣٧

(٨)

النبـــوات

بين النبوة والفلسفة

للمعارف المحترمة مصادر معينة لا يعول على ما وراءها .

فإذا كان مصدرها إنسانياً فيجب أن تنبع من ثنايا المنطق التجريبى أو الرياضى كما هو حاصل الآن فى علوم الكون والحياة وفيما يتصل بأحوال المادة وشئون الناس .

أما إذا كانت هذه المعارف متصلة بما وراء المادة — أى بما يقصر المنطق التجريبى والرياضى عن مناله — فإن الوحى الصادق هو سبيلها الفذة ولا قبل غيره فيها .

ومن ثمّ فالكلام عن الله وعن صفاته وعن حقوقه ، لا يعتمد فيه إلا ما جاء على ألسنة الأنبياء وحدهم .

وإذا تظاهرت الدلائل على صدق نبي مّا ، فإن ما جاء به من عند الله يأخذ وصف اليقين وينقطع دونه الجدل .

إن عشرات الفلاسفة والعلماء تكلموا فى المادة وما وراء المادة منذ آماد طويلة .

والتراث الذى جمعوه خليط من الصواب والخطأ عكف عليه الباحثون ليدروا صحيحه من سقيمه .

ويمكن القول بأن كلام القدامى والمحدثين فيما وراء المادة ينقصه التوفيق لا بعده عن منهج الوحى ، ولذا حفل بالنقائص والخرافات .

قال صاحب أحوال الفلسفة : « إن الأنبياء كلهم مع تباعد أزمانهم

واختلاف لغاتهم وموضوعات شرائعهم وافتنان سننهم تجدهم متفقين على رأى واحد ومقصد واحد فيما يشيرون إليه فى دعوتهم الأمم .

أما الفلاسفة فليست شريعتهم واحدة ولا دينهم واحداً . بل آراؤهم مختلفة وأقوالهم متناقضة تجري لأتباعهم حيرة قلما تنجلي غمرتها .

فكيف يرضى عاقل عن مذهب الفلاسفة مع اختلافهم — كأنما كذب بعضهم بعضاً — ويعرض عن البحث والنظر فى كتب الأنبياء مع اتفاقها .

إنما ذهل أكثر المتفلسفين عن حقائق الأشياء لعدم معرفتهم كتب الأنبياء وإعراضهم عن النظر فيها وقصور أفهامهم عن تصورها » .

هذا فيما يتصل بالمعارف الروحية .

أما الفلسفة المادية فإن اتجاه العلم فى العصور الحديثة إلى البحث المباشر والاستقراء الدقيق فقد أفقد هذه الفلسفات القديمة منزلتها ، وجعل أكثر نتاجها لغوا .

والحق أن كثيراً من مذاهب المفكرين وآراء الفلاسفة ومقالات الأدباء لا تعتمد على ركيزة محترمة من اليقين الراسخ ، بل جلها يشبه قصائد الشعراء هائمين فى أودية خيال . أو هى تصوير لمشاعر نفسية خاصة ووجهات نظر فى فهم الحياة قد تسير لأصحابها على أنها نزعات شخصية ، ولكنها لا تقبل مطلقاً فى ميدان العقائد العامة .

والتضارب الهائل بين ثمرات هذا اللون من المعرفة الإنسانية يجعلنا لا نخرج به عن هذا النطاق .

ولو قرأت فلسفة الهنود والرومان والإغريق ، وتطورات الفلسفة الإنسانية عامة فى القديم والحديث لما تجاوزت بها أبداً حدود البحث الحائر وراء

الحقيقة الغامضة وشتى الفروض التى يجانبها الصواب ومزيجاً من التحويم الغامص يعلو ويهبط ثم لايستقر على شىء ..

شتان بين هذا القلق و بين المبادىء المحدودة والتعاليم الواضحة والأفكار المشرقة التى عرضتها الأديان فى بساطة تامة ، كأنما تعرض المبادىء الأولى فى علم الحساب .

إننا لا نقبل من المعارف المادية إلا ما خضع للمنطق التجريبى والرياضى — كما قلنا — ولا نقبل من المعارف الروحية إلا ما جاء على لسان نبى عرفنا بمنطقنا المادى صدقه فأمناه على ما يغرس فى عقولنا وقلوبنا وما يرسم لآحادنا وجماعاتنا لأنا آمنا بأنه مبلغ عن الله . وما جاء من عند الله فهو الحق المطلق .

أما ماعدا ذلك فهو وهم مريب ، والتعلق به اتباع للظن وقد نهانا الإسلام أن نركن إلا إلى اليقين :

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا[1] » ، « وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ[2] » .

الوحى

أما الأنبياء فأساس علمهم الوحى .

هؤلاء الرجال المصطفون من أبناء آدم تتلقفهم العناية من نشأتهم الأولى

(١) الإسراء : ٣٦ (٢) النجم : ٢٨ — ٣٠

لتقيهم أوضار الطبيعة البشرية ، وترقى بهم صُعُداً فى مدارج الكمال ، وترشح قلوبهم الكبيرة لاستقبال ما نفد به الملأ الأعلى عن حضرة القدس .

فإذا بالحكمة تسيل من ألسنتهم ، والأسوة الحسنة تقتبس من أعمالهم ، والنزاهة المطلقة تقترن بأحوالهم و تحدهنهم .

و وحى الله تسرى به معرفته على قلوب الأنبياء أنواع ومراتب .

منه الرؤيا الصادقة فى النوم ، ورؤيا الأنبياء ليست من أضغاث الأحلام التى تترجم بها النفس عن رغباتها المكبوتة فى صور مهوشة منقطعة كما يحدث لجماهير الناس ! كلا . فإن الكمال البشرى الذى وصل إليه النبيون يجعل قلوبهم يقظة — ولو نامت أبدانهم — بعكس الدهماء الذين تنام قلوبهم ليلاً ونهارا فهى فى غفوة لا تصحو منها ، ولو نشطت أبدانهم وراء أغراضها الصغيرة .

أما أفئدة الأنبياء فكأجهزة الاستقبال المعدة لالتقاط الأنباء فى كل حين . وكمرايا الهادئة المتألقة تسجل ما يقذف الملك فيها . . ثم لا تلبث أن تذيعه على الناس أجمعين .

وكانت الرؤيا الصادقة أول مطالع الوحى فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة العظمى .

« أول ما بدىء به رسول الله من الوحى الرؤيا الصادقة . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » .

وقد ظل صلوات الله وسلامه عليه موصول القلب بالله فى يقظاته وهجعاته إلى الرمق الأخير من حياته .

ومن الوحى عن طريق الرؤيا حدثت قصة إسماعيل ونزل الأمر بذبحه « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ،

فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ : يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ[1] » ويكثر أن يكون الوحى إلهاماً — فى اليقظة — بوساطة الملك . ننضح به المعنى على قلب النبى فيتكلم الحق .

وفى سنة النبى صلى الله عليه وسلم أمثلة كثيرة لهذا الضرب من الإلهام ، سواء صرح فيه بخبر هذه الوساطة كما فى الحديث : « هذا رسول رب العالمين جبريل نفث فى روعى أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

أو طوى ذكر الملك وأرسل الحديث إرسالا كما فى سنن أخرى .

وقد نزل القرآن كوحى بألفاظه ومعانيه جميعاً .. فعلم منه الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يكن يعلم . وكان حظ جبريل فى ذلك مجرد النقل من لدن الخبير البصير : «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ[2] » .

وقد ينزل الوحى بتكليم الله لعبده مباشرة من غير وساطة كما تم لموسى .

« فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ..[3] » .

وكما حدث للنبى صلى الله عليه وسلم ليلة عرج به — على رأى طائفة من العلماء — .

بَيْدَ أن تكليم الله لأنبيائه أمر لا ندرى كنهه ، وليس على النحو الذى نعرفه بين المتحدثين من مكاتبة ومشافهة . بل كما قال الله تعالى :

(١) الصافات : ١٠٢ (٢) الشعراء : ١٩٣ — ١٩٥ (٣) القصص ٣٠ ، ٣١

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ[1] » .

والتصديق بمبدأ الوحي ليس مما يتعاظم على العقول إدراكه .

وشبه المؤكد أن جوانب مستفيضة من الحقائق تحتجب عنا ما دمنا قد اعترفنا بأن الله حق وأن وجوده فوق الريب ، وأن له جل شأنه أن يصطفي من عباده من يبلغ عنه مراده . ومن يتعهد به الأمم الشاردة ويخرجها من الظلمات إلى النور . . .

وحاجة العالم إلى الرسل ماسة .

فلو تركت أزمة الفكر الإنساني للاجتهاد المحض ، لضل الناس رشدهم ، ولما اتفقوا على حقيقة واحدة تصلح حالهم ومآلهم .

ونحن ننظر في تاريخ الأرض القريب والبعيد فلا نجد مثابة تفزع إليها الشعوب وتلتمس في ظلالها الخير والبركة إلا تعاليم الأنبياء . . .

هذه التعاليم منها ما يعجز العقل عن ابتداعه لو ترك وحده ، ومنها ما يمكن أن يصل إليه العقل بعد لأي وبعد تجارب مريرة .

ومع ذلك يكون تصوره له غامضاً وفكرته عنه منقوصة .

أحسب أنه لو لم تأتنا رسل من عند الله تعرفنا بوجوده ، لبحثنا نحن عن سر الوجود ! ولسنصل بأفكار حصيفة حتما إلى الجزم بأن هذا الكون لن يخلقه الوهم ولن ينظمه العدم ، بل لا بد من خالق موجود وقدرة منظمة .

(١) الشورى : ٥١ ، ٥٢

ولـكن هذه الأفـكار الصحيحة ستـكون فروضاً قلقة ، وقد تجرفها الآراء المناقضة ، والمذاهب الملحدة .

ولو استطاعت البقاء فإنها — فى غيبة الوحى — ستـكون تخمينات شتى ، يلتبس فيها الحق بالباطل .

ومن ثَم فإن بعثة الرسل كانت ضرورة إنسانية لتجنيب العالم متاعب الضرب فى بيداء طامسة .

وقد أدى الرسل واجبهم فى قيادة الفـكر والقلب وورثوا الأجيال المتعاقبة حقائق الإيمان بالله سهلة غضة ، لاتحس وأنت تتناولها من أيديهم الطاهرة بهذا الـكلال العقلى المعنت ، الذى يصاحب دائماً أفـكار الفلاسفة فى تصويرهم لأسرار الوجود .

وكما عرفنا عن طريق الرسل مبدأ الإيمان بالله ، عرفنا كذلك الإيمان باليوم الآخر وما يسبقه ويلحقه من حساب وثواب وعقاب ، عرفنا ذلك على جهة اليقين الجازم ! ولولا بلاغ الوحى نعجز العقل المجرد عن فهم النهاية المرتقبة لعمله الزاخر .

بلى . إن المرء قد يرفض التسليم بأن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء . لا سيما وهو يرى الجزاء مبتسراً فيها .

فـكم من الأخيار والأشرار يموت قبل أن يلقى جزاء ما اكتسب .

وكم من معارك دارت بين الأفراد والجماعات علا فيها مبطلون وهلك فيها مصلحون .

وجود موازين الجزاء فى الدنيا يعلق الأفئدة بيوم تتم فيه النصفة ويتحقق فيه العدل .

بل إن الفطرة — فيما تهدى إليه من حقائق — تجعل الإنسان يستشعر معنى الخلود ، و يستعد له فى حياته القصيرة بمختلف الأساليب .

بَيْدَ أن رسالات السماء وحدها هى التى كشفت الغطاء عن كل ما قد يثار حول البعث من ريب . وقدمت للمرء كشفاً مفصلا بالجزئيات التى سوف يلقاها عقب انتهاء يومه فى هذه الدار .

وليست وظيفة الرسل هذا الإرشاد العقلى إلى حقائق الحياة فحسب بل إن تربية الأصحاب والأتباع على هذه المبادئ من أهم ما جاءوا له .

والتربية (كالذوق) شىء ليس فى الكتب ، إنها ليست حشو الأذهان بالمعلومات ولا قيادة الحياة بالأوامر العسكرية .

بل إن التربية الدينية التى تولاها الأنبياء وكتبوا بها صحائف جديدة فى التاريخ تقوم على إحداث تغير نفسانىّ عميق يشبه تغير الطين بعد نفخ الروح فيه .

ودُعّارُ الجاهلية الذين عاشوا فى باديتهم عبيد شهوات ومساعر حروب فاجرة . لم يتحولوا بين عشية وضحاها إلى حنفاء ربانيين يقدمون أنفسهم وذراريهم قرابين للحق . . . إلا لأن نفحة عامرة من روح النبوة المقدسة خامرت مواتهم الأدبى فردت عليه الحياة و بعثته يدأب و يسعى . . .

ووظيفة الرسالة تقوم على إسداء العون والنصح للفرد والجماعة فى كل ناحية ، فهو يسكب من طهارة قلبه على أوضار القلوب فيغسلها . وهو يشعل من تألق عقله الأفكار الخابية فيضيئها ثم يبعثها هى الأخرى لتضىء وتهدى . .

والنبوة فى هذا المضمار لا يسبقها شىء .

ومهما عظمت نتائج الفلسفة فلن تخطو فى هذه السبيل أشباراً بعد أشبار ، حتى يدركها العثار . ! !

العصمة

وحياة الأنبياء تحلّق فى مستوى من الكمال ، لا تهبط عنه أبداً .

والمؤمن — من عامة الناس — تتذبذب حرارته فى مدارج الارتقاء .

و يعتبر الحدّ الأسمى الذى يقف عنده هو مقام الإحسان .

وهو « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

بَيْدَ أن مقام الإحسان وهو آخر ما يصل إليه الناس بعد الجهد والمران ، هو المرتبة الدنيا للأفق الذى يعيش الأنبياء فيه إذ يستحيل فى حقهم أن يسقطوا دونه .

أما ما يرقون فيه — بعد — من معانى الصلة بالله فأمر لا ندرك كنهه . .

وقد قرر علماء المسلمين أن العصمة واجبة لرسل الله كافة . .

فلا يليق أن تصدر عن أحدهم كبيرة لا قبل البعثة ولا بعدها .

ولا تصدر من أحدهم صغيرة تخل بالمروءة أو تسقط الاعتبار .

وقد تقع منهم أخطاء يعاتبون من الله عليها و يوفقون إلى الصواب فيها ولكن هذه الأخطاء لا تصل بأمور اعتقادية أو خلقية مما يعد الوقوع فيه أمرا شائناً .

بل مكانها ذلك الأمور التقديرية التى تتفاوت فيها الأنظار عادة من شئون الدنيا وسياسة الأمم .

وقد يعتبر الأنبياء أنفسهم مقصرين فى حق الله ، لأنهم أعرف الناس به وبجلال ذاته وعظمة حقوقه على عبده ، و بقصور الهمم مهما بذلت عن الوفاء بما ينبغى له .

وإذا كانوا يعدون ذلك ذنوباً تطلب الاستغفار ، فليس استغفار الأنبياء عن مثل ما نقترف من خطايا أو نرتكب من سيئات . ! !

وما ورد مما يوهم غير ذلك فإن حقيقته وراء أوهام العامة . وتفصيل الموضوع فى غير هذا المكان .

المعجزة

من حق الناس أن يسألوا كل رجل يزعم أنه مرسل لهم من عند الله : ما دليلك على صدق قولك ؟

فإذا قدّم لهم الدليل المقنع على صحة رسالته قبلوه واستمعوا له .

وقد جاء صالح إلى ثمود يخبرهم بأنه نبىّ من عند الله ، ثم يصيح فيهم : « فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ(١) » .

ولكن ثمود ردوا هذا النصح وطالبوا صالحاً بالبرهان على أنه ليس شخصاً عادياً .

« قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٢) » .

فكان طلب ثمود معقولا ، ولذلك جاءت الإجابة عليه سريعة .

وكانت الطريقة التى وجدت وعاشت بها هذه الناقة ، خارقة لما تعارف عليه القوم .

(١) الشعراء : ١٥٠ — ١٥٢ (٢) الشعراء : ١٥٣ — ١٥٦

ودل محياها على أنه أثر لقدرة عليا لا لقُدَرِ الناس المعتادة .

وهذا النوع من الاستدلال يقوم على تفهيم الناس أن الشخص الذى يحدثهم لا يمثل نفسه ، ولكن يمثل رب الأرض والسماء .

ولذلك يعمل بقوته المطلقة ، لا بقوى البشر المحدودة ! .

وقد فزع موسى إلى هذا الدليل ، لمّا كذبه فرعون فى دعواه أنه مرسل من رب العالمين وتهدده .

« قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ، قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ، قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ[1] » .

وكذلك صنع عيسى عليه السلام عندما عرض نفسه على بنى إسرائيل . فنبأهم بأنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى .

ثم سرد أدلته على رسالته : « أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[2] » .

وقد لوحظ أن أكثر الأمم — برغم ما سيق إليها من آيات باهرة — لم تستجب للحق ولم تسلم بدعوى المرسلين ، لا عن قصور فى الأدلة التى تسندهم بل عن عند وتبجح .

(١) الشعراء : ٢٩ — ٣٣ (٢) آل عمران : ٤٩

« الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ! ! قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ . فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[1] ؟ » .

* * *

والدليل على صدق أية دعوى قد يكون بأمور خارجة عنها ، أو يكون بحقيقتها في نفسها .

فقد يزعم أحد الناس أنه مهندس ويقول : دليلي على ذلك أني أستطيع السير بقدمي على الماء أو الطير بجناحي في الهواء .

فإذا فعل ذلك سلمنا له !

وقد يقول دليلي على ما أقول : أني أبني — فعلا — عمارة مدعمة الأركان ، أو أصل بين شاطئين — مثلا — بجسر متين !

فإذا فعل ذلك فقد دل بقدرته الهندسية على أنه مهندس يقيناً .

بل قد تستريح النفس إلى هذا الاستدلال أكثر من راحتها إلى البراهين الخارقة الأولى .

قال ابن رشد : « إن دلالة القرآن على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست كدلالة انقلاب العصا حية ، ولا إحياء الموتى ، وإبراء المرضى .

فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء ، وفيها ما يقنع الجماهير من العامة إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة وأهداف الوحي ومعنى الشريعة .

(١) آل عمران : ١٨٣

أما القرآن فدلالته على صفة النبوة وحقيقة الدِّين مثل دلالة الإبراء على الطب.

ومثال ذلك ، لو أن شخصين ادَّعيا الطب فقال أحدهما : الدليل على أنى طبيب أنى أطير فى الجو .

وقال الآخر : دليلى أنى أشفى الأمراض وأذهب الأسقام . لكان تصديقنا بوجود الطب عند مَن شفى مِن المرض قاطعاً ، وعند الآخر مقنعاً فقط » اهـ . ملخصاً بتصرف .

فالمعجزات إذن قد تكون ذاتية فى الرسالة ، وقد تكون خارجة عن جوهرها .

والتفاوت بينها واسع النطاق باختلاف البيئات التى ظهرت فيها والرسالات التى اقترنت بها .

وقد كان التعويل فى العُصور الأولى على الخوارق المادية فحسب . أما ما تضمنته الأديان من حقائق فكانت منزلته ثانوية .

حتى جاء الإسلام فغض من شأن الإعجاز المادى . . . ونوه بالإعجاز العقلى والقيم المعنوية للرسالات .

وقرر إلى جانب ذلك أن الخوارق التى دعمت بها الديانات القديمة لم تمنع التكذيب بها — أولا — فلا معنى لطلب التصديق بها أخيراً .

« وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا . وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً[1] » .

ومن ثَمَّ اتجه تأييد الأنبياء وجهة أخرى .

---

(١) الإسراء : ٥٩

المعجزة بين الرسالة الخاتمة والرسالات الأولى

. . جرت سنة الله فى أنبيائه جميعاً أن يؤيدهم بمعجزات الواضحة، وأن يسوق بين أيديهم من خوارق ما لفت الأنظار ويستهوى الأفئدة . ثم ما يبنى معه اليقين وعنصر الاستقرار ودواعى الطمأنينة فى النفوس .

وكانت معجزات الأنبياء شيئاً آخر غير الرسالات التى يبشرون بها ويدعون إليها .

فطبُّ عيسى غير إنجيله، وعصا موسى غير توراته .

إلا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة شيئاً لا ينفصل عن جوهرها .

فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتابا واحدا .

وجعل من أصول الدعوة وأساليب عرضها، البرهان الأكبر لدعوى الرسالة . والسند الأعظم لصدق صاحبها .

فأى القرآن الكريم — بما تتضمن من دساتير العدالة الخلقية والاجتماعية والسياسية، وبما تغرس فى الطبائع من آثار الأدب والتربية والاستقامة — هى هى رسالة الإسلام ومعجزته .

وأعظم ما فى هذه الآيات أن الفطرة الإنسانية تجد فيها مجالها الحيوى الفذ وتجد فى جوها المتنفس الطلق الحر .

ومن ثَمَّ كان القرآن كتاباً إنسانياً . وكان نبى القرآن إنساناً كاملا، وكانت رسالة الإسلام فى موضوعها وأهدافها إنسانية بحتة .

ولذلك توجه القرآن — مباشرة — إلى العقل البشرى يخاطبه ويفك عنه آصاره، ويرد عنه اعتباره .

وأكد القرآن أن أصحاب هذا العقل وحده هُم الذين يستطيعون فهم
وتبيُّن معانيه .

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ(١) » .

بل إن أصحاب هذا العقل وحده ، هم الذين يفهمون رسالة الوجود
ويفقهون أسرار الكون .

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِأُولِي الْأَلْبَابِ(٢) » .

فلتكن إذاً معجزة نبي الإسلام عقلية .

وما دام البشر يحترمون عقولهم ، فستبقى لهذه المعجزة قيمتها ، أجل .
ستبقى لهذه المعجزة قيمتها ما بقي العقل أنفس شيء فى الحياة وما استلهم
الناس عقولهم فى الحكم على الأمور وفى قيادة الإنسانية إلى آفاق الترقى والكمال .

مقترحات كافرة

غير أن هذا المنطق لم يكن ليلقى القبول الواجب له عند أعراب الجزيرة
وبقية القرون الأولى وصرعى الأوهام والخيالات .

إذ كان أقصى ما يفكر فيه هؤلاء أن يشاهدوا خارقاً يقلب البر بحراً
أو انخصب جدبا .

وعندئذ يفقون السير ويدخلون فى الإسلام .

(١) الرعد : ١٩ (٢) آل عمران : ١٩٠

ولم يكن شيء من هذا الذى اقترحوه عزيزاً على قدرة الله .

ولكن حكمة الله أبت إلا أن تغالى بقيمة العقل الإنسانى الذى أرخصوه .

وإنه لعزيز على هذه القدرة العجيب أن تعطى الإنسان عقلا يصنع المعجزات — إذا ما عنى به والتفت إليه — ثم تترك هذا الذى أعطت يضيع عبثاً . وتستجيب لرغبات الجاهلين الذين سفهوا أنفسهم وأفكارهم ، وأبوا تحكيم مشاعرهم وعقولهم . وطالبوا بمعجزات مادية قليلة أو كثيرة لتصديق نبيهم .

وكان لا بد فى معاملة أولئك القوم من سلوك منهج يرغم آنافهم على احترام العقل الإنسانى لمصلحتهم ولمصلحة الأجيال من بعدهم ! !

ولذلك تقرر أن تكون المعجزة الكبرى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه فى هذا القرآن الكريم .

فبه كان التحدى ، وعليه كان الرسول يعتمد فى سيرته مع خصومه وأصحابه طول حياته .

ومن عنده ظل القرآن كتاب الإسلام الناطق بدعوته وحجته معاً .

لا أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تبث فى طريق الرسول أنواعاً من الخوارق التى أيد بها النبيون الأولون ، فجاءت هذه الخوارق تحمل طابعاً خاصاً ينبغى أن نعرفه حتى لا نتجاوز به حدوده الصحيحة . . . هذه الخوارق ثانوية الدلالة فى تصديق النبوة والشهادة لها .

والطريقة التى أرسلت بها من عند الله تشير إلى أن الحكمة الإلهية لم تلق عليها كبير أهمية ، ولم تغض بها من قيمة المعجزة العقلية التى انفرد الرسول بها .

فقد حدثت جملة من هذه الخوارق بين المؤمنين الذين استقر الإيمان فى قلوبهم فعلا ؛ والذين سبق لهم تصديق النبى فى دعوته لأنهم أعملوا عقولهم واحترموا إنسانيتهم .

وحدث بعض آخر أمام أعين الكافرين .

بيد أن الصورة التى تمّ بها تثير الدهشة .

إذ كانوا يقترحون معجزة فتأتيهم أخرى ، أو يأتى ما يقترحون بعد سنين طوال ، وعلى وجه يبدو منه أن إجابتهم إلى ما طلبوا لم تقصد أصلا .

وربما تهمل مقترحاتهم كلها ، فلا ينظر لها قط .

فما معنى ذلك ؟ وما السرّ فيه ؟

حقيقة الإعجاز المادى

بيّن الله عز وجل أنه فصّل فى كتابه كافة أسباب الإيمان وأسانيد النبوة .

ولكن الناس أبوا الرضى بهذا اللون من الإقناع .

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا »[1] .

وماذا بعد أن كفروا ؟

طلبوا أشياء معينة ، زعموا أنها — وحدها — هى التى تدعوهم إلى الإيمان .

« وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ[2] » الخ

(١) الإسراء : ٨٩ (٢) الإسراء : ٩٠ — ٩٢

ودعك من المطالب التى أملاها العناد والسخف من سلسلة هذه المقترحات الطويلة ثم تأمل .

أتفجير ينبوع من الأرض معجزة يتيه البشر على أنه عمل نزل قوى من السماء لإتمامه . ثم هو دعم لقوى الإنسانية ؟

إن من في طفولته يعتمد على أبيه دائماً في جيب كل خير وتتمة كل عمل

فليس من حق الأب إذا رأى ابنه جاوز دور الطفولة أن يحسر به على يديه ، ويتركه يتجشم وحده مشقة السعى . واقتحام المستقبل . وتحمل أعباء الرجولة ؟

هكذا صنع الله مع عبده ، فقد أرضى الإنسانية فى طفولتها بألوان صارخة من الخوارق . حتى إذا اشتد عودها واستوى فكرها ، تركها لتستخدم مواهبها الفكرية ، ولتتبين الصواب والخطأ .

فإمّا هلكت عن بينة ، أو نجت عن بينة .

ويوم أن تعرف البشرية « العقل » فى قبول دين أو رفضه ، فستعرف من حقائق عصرها كيف تستغل هذا العقل فى تفجير الينابيع وتحويل رمال الصحراء إلى حدائق غناء .

وهذا بعض ما طلب أعراب الجزيرة من رسول الله ليصدقوا رسالته !

وقد طلبوا منه أن يرقى فى السماء ، لكن الله أحب أن يكشف لهم عن سقم البواعث التى توحى بهذه المطالب ، وأن يثير فيهم الإيمان بإنسانيتهم المهدرة ، وأن يرد الحرمة إلى عقولهم المحتقرة ، وأن يعلمهم تكريم البشرية المجردة بالإيمان بنبى البشرية المبعوث من ضيائها و وسط رواتها .

ولذلك يهتف القرآن عقب هذه المقترحات .

« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا »(١) ؟ .

وقد حدث بعدئذ أن رقى النبى فى السماء ليلة الإسراء بعد تقديم هذه الاقتراحات بأمد طويل .

فكان وقوع الارتقاء على هذا النحو دليلا ناطقاً على أن الحكمة الإلهية لم تكترث قط بمطالب الكفار ولم تعرها أية قيمة .

بل جاء الرقى فى السماء ليلة المعراج مظهر تكريم بحت من الله لنبيه .

لم تنزل به الإرادة العليا على رغبة بشر . ولم يرتب على إيقاعه ما يترتب — غالباً — على وقوع التحدى من إيمان أو كفران .

بل تركت مسألة اتباع النبى أو التخلف عنه موكولة إلى المعجزة العقلية الفريدة معجزة القرآن الكريم .

« فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ »(٢) .

وقد أقسم المشركون مرة أنهم يؤمنون لدى أية معجزة مادية تقع كما يضرع الشاب لوالده أن يرضى نوازع طفولته ثم يسمى بعد ئذ رجلا !

فأبى الله إلا أن يردهم إلى أفئدتهم وأبصارهم ، يتعرفون بها الحق ويتبينون بها عيه .

فإن معجزات الأرض والسماء لا غناء فيها إن لم يستتر القلب والعقل بما أودع الله فيهما من نور .

« وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا . قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ وَنُقَلِّبُ

(١) الإسراء : ٩٣ (٢) الكهف : ٢٩

أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون . . »[1]

ويزيد هذا المعنى جلاء ، قول القرآن في تصوير موقف الكافرين ، وبيان ما انطوت عليه أفئدتهم وضمائرهم من عناد وغباء .

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »[2] .

فماذا تجدى المعجزات المادية مع هؤلاء ؟!

وهم إنما ضلوا لاستغلاق قلوبهم وعقولهم .

وهم لو تفتحت قلوبهم لاكتفوا بالقرآن آية لا تعلوها آية ، ومعجزة لا تدانيها معجزة .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم »[3] .

النبي الإنسان

ولئن كان القرآن هو الكتاب الذى يصور للإنسانية آفاق كمالها ، فإن محمداً صلوات الله عليه وسلامه هو الرجل الذى حقق فى شخصه وفى آثاره أعلى ما تنشده الإنسانية من مثل .

فقد رفع شأن « الضمير » عند ما أعلن أن التقوى تستقر فى القلوب الزكية ولا تغنى عنها قشور العبادات ، وثبّت قيمة العقل وجعله أصل دينه .

(١) الأنعام : ١٠٩ ، ١١٠ (٢) الحجر : ١٤ ، ١٥ (٣) محمد : ٢٤ ، ٢٥

وأسس عليه المسلمون حضارة متشعبة الثقافات والفنون ؛ وصلَت ماانقطع من تراث الإنسانية الفكرى . وكانت البذور المنتجة التى أورثت العالم حضارته الحديثة !

ثم إن هـذا النبي هو المحرر الأول للإنسان والمقرر الأول لحرية العقل والضمير .

لقد جعل الكون كله مسخراً لنشاط الإنسان الذهنى والبدنى .

وجعل الإنسان سيداً فى نفسه ، سيداً لعناصر هذا العالم ، عبد الله فقط ؛ فلا سلطة ألبتة لدهاقين السياسات والديانات .

ونبى الإسلام عربى ، ولكن الدين الذى جاء به لا جنسية له .

وأى جنسية لدين يخاطب العقل حيث كان ، ويبنى أدلته على النظر فى فجاج الأرض والسموات ؟

بين النبوة والعبقرية

تاريخ البشر حافل بأسماء الكثيرين من أصحاب المواهب الرفيعة والكفايات الضخمة .

وعنيت الإنسانية فى ذاكرتها ، وسجلت لهم فى صحائف الخلود ما قاموا به من أعمال جليلة .

وروت للأجيال آيات مجدهم وآثار نبوغهم لتكون منه عبرة حافزة .

والعظمة قدر مشترك بين ألوف من الناس ظهروا فى شتى الأعصار والأمصار ودفعهم امتيازهم المعنوى إلى اعتلاء القمة .

إلا أن العظماء متفاوتون فيما بينهم تفاوتاً بعيد المدى .

ألا ترى كواكب السماء ونجومها ؟ إن بعضها أكبر من الآخر ألف ألف مرة .

ومع ذلك فالدرارى الصغيرة ليست من الحصى والجندل !

فهذا محصن تواريخ العظماء وفيهم الأنبياء من مبعثى الوحى وفيهم الفلاسفة من قادة الفكر ، وفيهم مخترعون من عمد الكون : وفيهم الزعماء من قادة الجماهير . وفيهم الأدباء من حملة القلم ، وفيهم . وفيهم .

فإن هذا التمحيص وما يستتبعه من موازنة وترجيح ، لا يميل بقدر أحد من أولئك العظماء إلى الحد الذى يهوى فيه إلى منازل السوقة .

العبـــاقرة

كثيراً ما تـكون العظمة امتداداً فى موهبة من مواهب النفس .

بل كثيراً ما يكون هذا الامتداد على حساب المواهب الإنسانية الأخرى .

فإما أصابها بالضمور والشلل ، وإما ردّ النواحى الأخرى من شخصية العظيم إلى مستويات فى سائر الناس .

بل قد تـكون أبعد سقوطاً وأشد ضراوة .

ومن هنا لا تعدم فى سيرة كل عظيم من أولئك المشهورين نقطة سوداء وجانباً غائماً .

كان (نابليون) قائداً محنكا مسعر حروب ، ولـكنه كان ساقط الخلق ، فاحش الغدر .

وكان (جاك روسو) أديباً ثائراً من أعظم واضعى دساتير الحرية فى العالم ، ولـكنه كان معوج السلوك ، هزيل الشرف .

وكان (بسمارك) داهية فى السياسة لا يبارى ، وكان كذلك كذاباً مزوراً .

وهناك من الفلاسفة والشعراء والمفكرين والمخترعين من تفجؤك فى أحوالهم وأعمالهم أمور شائنة تستغرب كيف يصدر مثلها عنهم ! !

وهم — مع هذا كله — عباقرة ، لأن إنتاجهم العلمى والأدبى وتراثهم الرائع الفريد يسمو بهم فوق مستوى العامة .

والذين ظهرت سيرهم من هذه الشوائب ، تراهم مبرزين فى ناحية ، ومعتادين فى ناحية أخرى ، أو مرضى بما يفسد عليه أفكارهم .

فأبو العلاء الأديب الرقيق المتشائم ، لو وهب معدة قوية أو بصراً حاداً لكان لفلسفته اتجاه آخر غير التبرم بالدنيا ، وتسخط الوجود فيها .

ومن أعظم زعماء العلماء من تراه أسير عقدة نفسية ، أو شذوذ جنسى ، أو أثرة حادة !

ومنهم المصابون بجنون العظمة ، وتقديس الذات ، وكراهية شىء معين أو محنه !

ولذلك تتسم حياتهم بالنقائص الموزعة على جانب مستور منهم ، وجانب مكشوف للجمهير لا غبار عليه .

وقد اعتبرت الحضارة الأوربية هذا التناقض شيئاً عادياً مألوفاً .

ومن ثمة سمحت للعظماء أن تكون لهم شخصية مزدوجة .

ورأت أن تنتفع الأمم بمواهبهم وأن تتجاوز لهم عن سقطاتهم .

والإنجليز يعرفون أن « بسن » مات وهو يختلس عرض غيره ، ولكنهم يغضون الطرف .

ويعرفون أن « تشرشل » خان عهوداً شخصية واجتماعية ، بَيْدَ أنهم يتعامون عنها .

فلندع هذا الفريق المعدود من زعماء العالم ونرتفع .

أجل نرتفع كثيراً ، لنصل إلى مستوى أكرم وأطيب . وننبئكم عن صفـ حر . . . هم :

الأنبيـــاء

لئن كانت العبقرية امتداداً فى موهبة واحدة أو فى جملة مواهب فالنبوة امتداد فى المواهب كلها ، واكتمال عقلى وعاطفى وبدنى ، وعصمة من الدنايا ورسوخ فى الفضائل وعراقة فى النُّبْلِ والفضل :

هُمُ الرِّجَالُ الْمَصَابِيحُ الَّذِينَ هُمُ ... كَأَنَّهُمْ مِنْ نُجُومٍ حَيَّةٍ صُنِعُوا
أَخْلَاقُهُمْ نُورُهُمْ مِنْ أَىِّ نَاحِيَةٍ ... أَقْبَلْتَ تَنْظُرُ فِى أَخْلَاقِهِمْ سَطَعُوا

فالذين يُرشحون للنبوة يصطفون لها اصطفاء .

قلوب نقية تربطها بالملإ الأعلى أواصر الطهر والصفاء

وعقول حصيفة ناضجة لا تنخدع عن حقائق الأشياء ، ولا يصيبها ماأصاب كبار الفلاسفة من شرود وعماء .

وأجسام مبرأة من العلل الخبيثة ، والأمراض المشوهة أو المنفرة .

وصلة بالناس قوامها البر والخير .

فليس يتصور فى حقِّ نبى لله ، أنه أخلَّ بحق المروءة والتفضل ، بله أن يرتكب ما يخدش الشرف ، أو يقدح فى العصمة !

ثم إن الرسل أمناء على الوحى السماوى والهداية الإسلامية .

فكلامهم حكمة ، وحياتهم أسوة . سريرتهم وعلانيتهم سواء .

(ليست لأحدهم صفحة مطوية وصفحة مكشوفة) .

طرائق معيشتهم الخاصة كمناهج دعوتهم العامة ، تنضح عفافاً واستقامة .

ظلوا بين الناس ما شاء الله فكانت مجمعاتهم بركة ، ثم قبضوا فخلّفوا أقدس موارث ، وأقدس تركة .

وحسبك أنهم خيرة الله من خلقه .

« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[1] » . « اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[2] » .

وأقدار الرسل تتفاوت سناء وسمواً .

فالرسول فى قبيلة محدودة أفضل منه الرسول لمدينة فيها مائة ألف أو يزيدون ، أفضل منه الرسول لشعب بأسره .

وصاحب الكتاب المستقل أفضل ممن يحكم بشريعة سابقة .

ولا نزال نرقى فى مراتب العظمة ، ولا نزال نحلق صعداً نحو القمة ، ولا نزال نقطع أشواطاً بعد أشواط فى مدارج الكمال البشرى ، حتى نصل إلى مستوى تنحسر دونه أبصار العباقرة مهما طمحت ، وتتطامن عنده أقدار الأنبياء مهما عظمت . نجد صاحب الرسالة العظمى إلى خلق الله قاطبة ، ملتقى

(١) الأنعام : ١٢٤ (٢) الحج : ٧٥ ، ٧٦

الفضائل المترفة ، ومظهر المثل العليا التى صورتها الخيالات ثم صاغها الله إنساناً يمشى على الأرض مطمئناً .

ذلك هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك مثله بين عباقرة الأرض وأمناء الوحى :

أفق محمد يزهو على كل أفق ، وتسطع فيه أشعة متموجة تنطق بالحب والحنان والرحمة والعقل والفراسة والحكمة .

هيهات هيهات أن يدرك كنه ذلك أحد ! فالعظيم لا يعرفه إلا عظيم مثله . ومن كمحمد فى الناس ؟!

كيف ترقى رقيك الأنبياء   يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد   حال سنًا منك دونهم وسناء

مسك الختام

كان المرسلون الأولون مصابيح تضىء فى جوانب الليل الذى ألقى جرانه على أبحاء الدنيا .

فما بدأ فجر الإسلام تنشق عنه الظلام ، وبدأت أشعة الرسالة العامة تهادى فى الأفق ، انتقل العالم من عهد إلى عهد :

لا تذكروا الكتب السوالف قبله   طلع الصباح فأطفأ القنديلا

والكلام فى عظمة الشخصية التى حملت عبء هذه الرسالة يطول ، وحسبنا أن الله عز وجل جمع فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من شارات السيادة والنبالة ما تفرق فى النبيين من قبل .

ولقد ذكر الله أسماء ثمانية عشر نبيًّا فيهم أولو العزم وأصحاب الرسالات الأولى ثم قال :

« أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ . أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ . قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ »[1]

وهذا الأمر بالاقتداء كان ماثلا فى ذهن النبى صلوات الله عليه وهو يقوم بتبليغ الدعوة .

فلما طعن أحد المنافقين فى تصرف له وهو يقسم الغنائم قائلا : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . كظم النبى صلى الله عليه وسلم غيظه وقال : « رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

ومن ثمّ قال المفسرون فى شرح هذه الآية : إنها تومئ إلى فضل الرسول على من سبقه .

فإن خصال الكمال التى توزعت عليهم التقت أطرافها فى شخصه الكريم .

كان نوح صاحب احتمال وجلد وصبر على الدعوة .

وكان إبراهيم صاحب بذل وكرم ومجاهدة فى الله .

وكان داود من أصحاب الشكر على النعمة وتقدير آلاء الله .

وكان زكريا ، ويحيى ، وعيسى من أصحاب الزهادة فى الدنيا والاستعلاء على شهواتها .

وكان يوسف ممن جمع بين الشكر فى السراء والصبر فى الضراء .

(١) الأنعام : ٨٩ ، ٩٠

وكان يونس صاحب تضرع وإخبات وابتهال .

وكان موسى صاحب شجاعة و بأس وشدة .

وكان هرون ذا رفق .

حتى ننظر فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم بعد هذه السير السابقة فنراه كالبحر الخضم تصب فيه الأنهار :

فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

موئل البطولات

من ذوى المواهب من يعيشون فى عزلة قصية عن الجماهير ، و يؤثرون البقاء فى البرج العاجىّ عما تستتبعه مخالطة الناس من سخط وتبرم .

ومنهم من يلقى بنفسه فى معترك الحياة ومعه عدة النجاح ، من عمق النظرة ، وذكاء الفكرة ، والبصر النافذ . إلى أدواء الشعوب وأدويتها .

غير أنه مع هذه المواهب الجليلة ضيق العاطفة لا يألف إلا القليلين ممن هم على شاكلته فى المزاج ، أو من يتفقون معه فى الأهداف .

ومن العظماء من أوتى امتداداً فى شخصيته و بسطة فى مشاعره تجرف الناس إليه وتعلق القلوب به .

ولسنا نقصد بهذا قوة السيطرة على العامة والقدرة على تحريكهم وتسخيرهم . كلا كلا .

و إنما نقصد هذا النوع من العظماء الذى يلتف به أصحاب الكفايات الكبيرة ، و يرمقونه بالإجلال و يقدمونه على أنفسهم عن طواعية واختيار .

ولقد ظهر أفراد قلائل من زعماء الشعوب على هذا الغرار الفذ ، وتركوا فى تاريخهم أثراً لا يمحى .

على أن الإنسانية لم تعرف فى ماضيها الطويل — ولن تعرف — رجلا وقّره الأبطال وكرمه العظماء ، وانطبعت محبته فى شغاف القلوب ، كما عرف ذلك فى النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

كان أصحاب الشجاعة فى القتال يحبونه لأنه أشجع منهم حين تحمر الحدق ويشتد البأس .

وكان أصحاب الحذق فى السياسة والتدبير يحبونه لأنهم يرونه أكثر منهم مرونة وأرحب أفقاً .

وكان الأجواد الأسخياء يرونه وقد ملك وادياً من الإبل والغنم فما غربت عليه الشمس إلا وهو منح وهدايا للطالبين والراغبين .

وكان العبّاد يرونه صواماً قواماً ، والزهاد يرونه عفيفاً مترفعاً ، وأصحاب البيان واللسان يرونه فصيحاً معرباً .

حتى المعجبون بالقوى المادية كانوا يرونه مصارعاً يهزم العمالقة . .

وهكذا ما عرف أحد من العظماء ميزة فى نفسه يفخر بها إلا وجد رسول الله على خلق أعرق منه وأرقى .

ولذلك يرفع إليه بصره مثلما يرفع الناس أبصارهم إلى القمم الشواهق التى لا تنال ! !

ومع هذا الجلال الفارع ، وذلك الامتياز الرائع ، فقد كان هذا الرسول الأمين قريب السهولة ضبعه من كل فرد .

فما يعز مناله على أرملة أو مسكين .

بل بلغ من اتساع عواطفه وتدفق مشاعره ، أن كل فرد كان يحس في نفسه أنه آثر الناس عند رسول الله ، وأقربهم إليه ، وأعزهم عليه .

كالشمس ترسل أشعتها فيستمتع الجميع بها ، ويأخذ كل امرئ حظه من الدفء والحرارة والمتعة ، لا يحس بأن أحداً يشاركه فيها أو يزاحمه عليها . . .

كذلك كان محمد مع صحابته ، يأوون من نفسه الكبيرة إلى كنف رحيم .

الوصف بالعبقرية

يقولون إن النبوة هبة لا كسب ، وفضل يغدق ، لا نصيب يطالب به ويسعى إليه . وهذا حق « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ[1] » . « أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ، أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ؟ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ »[2] .

بَيْدَ أن هذا الخير لا ينزل اتفاقاً ، ولا يدرك اعتباطاً !

وقد حاول شاعر في الجاهلية — بكثرة الكلام في الإلهيات — أن يكون نبياً ففشل .

وتوقع نفر من الأحبار والرهبان أن يصيبوا هذا الشرف ففاتهم مع تشوقهم إليه ورغبتهم فيه .

إن الله — سبحانه وتعالى — يختار لهذا المنصب العظيم أهله ! !

ومن ظن أن العصمة تمنع المحنة والابتلاء ، أو أن الرسل الكرام ليسوا أكثر من حملة وحي ، وظيفتهم التبليغ المجرد ، كأن أحدهم مكبر صوت تنفخ من ورائه الملائكة ، فليست له مواهب ولا استعداد خاص ولا امتيازات رفيعة .

(١) الزخرف : ٣٢ (٢) الطور : ٣٧ ، ٣٨

من ظن ذلك فقد ضل فى فهم المرسلين ، وجهل ما حباهم الله به من خلال تعجز أعظم فلاسفة الأرض لا يصل إلى مصاف أقدامهم ! .

إن الكتّاب الذين ألفوا فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ووصفوه بالعبقرية يمكننا أن نقبل منهم هذا الوصف بحذر و بقدر .

نقبله إذا كان القصد منه كشف النقاب عن معالم العظمة الشخصية و إلقاء ضوء على البطولة الأدبية لأولئك المصطفين الأخيار .

ونقبله إذا كان القصد منه الاعتراف بمبدأ الوحى الذى يصل المادة بما وراء المادة . وهذا هو أساس النبوة الأول .

ونرفضه إذا كان وصفاً لعظمة إنسانية معتادة تسلك صاحبها مع غيره من رجال التاريخ البارزين .

ذلك موقف المسلم من جمهرة المؤلفين والمؤرخين ممن كتبوا فى حياة النبى الأمين .

الإيمان بالنبوات كلها

جعل الله — سبحانه وتعالى — التصديق برسله كلهم ركناً فى الدين وقرن الإيمان بهم بذاته المقدسة فأصبح الإيمان بهم متمما للإيمان به « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ »[1] .

والإيمان بمحمد رسول الله هو الشطر الثانى من شهادة الإسلام . لا يصح إيمان إلا به .

وإنما كان الإيمان بالنبوات هذه المنزلة ، لأن معرفة الله على وجهها الصحيح ، وفهم ما يريده لعباده ويطالبهم به إنما يكون عن طريقهم وحدهم .

والارتباط بالرسل ليس تعلقاً بأشخاصهم من الناحية البشرية البحتة ، بل هو ارتباط بالوحي الذي شرفوا به ، والأسوة التي تؤخذ منهم .

ومن ثَمَّ يقول الرسول الكريم : « لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ » .

ويقول الله تعالى : « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ! فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ »(١) .

* * *

وسريان الفساد إلى الديانتين الكبيرتين السابقتين على الإسلام ، اليهودية والنصرانية ، وما طرأ عليهما من تغيير ، وداخل كتبهما من تحريف ، جعل الإسلام هو الطريق الفذة للإيمان السليم .

فمن كتاب محمد صلى الله عليه وسلم وحده ، ومن سنته وحدها يفضى الناس إلى الحق .

والأبواب إلى الله في عصرنا هذا ، مهما وقفت عليها في اليهودية أو النصرانية ، فلن تفتح لك مغاليقها .

أما في الإسلام وعند نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فستنفذ وراء النبي العابد ، ونهجه الخالد ، وقرآنه المحفوظ ، وسننه المصون .

فتعرف ربك عن يقين ، وتعرف ما يكلفك به من غير تزوير ولا تحوير !!

من أجل ذلك اعتبر الإيمان بمحمد شرطاً لصحة الإيمان بالله .

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا

(١) الأعراف ٦ ، ٧

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ — كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ . وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ[1] » .

ولا تحسبن هذا غلوًّا فى تزكية مخلوق . أو افتياتاً على حق الخالق ، أو تجنياً على أتباع الرسل الأولين .

فإن عيسى وموسى صلوات الله عليهما سارا بالناس إلى الله على بصيرة وهم لا يدرون ما فعل شيعهم من بعدهم .

ولو عادوا إلينا أحياء لكانوا أول من يبرأ من الكتب المدسوسة عليهم وأول من يستمع لآيات الذكر الحكيم ويبادر إلى تنفيذ أحكامها ووصاياها .

ثم إن الله لما ضم الإيمان برسله إلى الإيمان به ، جعل الكفر بواحد منهم كفراً به — جل شأنه — وبهم جميعاً .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ . وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[2] » .

* * *

(١) محمد ١ — ٣   (٢) النساء ١٥٠ — ١٥٢

ومحمد خاتم المرسلين أكمل الله به صرح النبوات ، وأتم به حقيقة الرسالات .

« إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ . فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَتَعَجَّبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ وَأَنَا اللَّبِنَةُ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ » .

وقد جاء من يدعى النبوة بعده فهو كاذب ، ومن صدقه فهو كافر .

. وقد ظهرت طوائف من الحمقى تتبع رجلا اسمه البهاء يدعى النبوة ، ويطوون نحلتهم وراء قناع من التمسح بالإسلام وإظهار التصديق به وغيره من الأديان . وهم ليسوا من دين الله فى شيء .

وبهاؤهم دجال ، وتعاليمه زور وبهتان ، وليس بعد القرآن وحى .

« فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ »[١] ؟ .

وقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم قبل موته من هؤلاء المخرفين قال :

« يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ يُحَدِّثُونَكُمْ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ . فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لَا يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يَفْتِنُونَكُمْ » .

وفى حديث آخر : « إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابًا ، كُلُّهُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي — وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ » .

* * *

(١) يونس : ٣٢

وقد عرفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور تتصل بعقائدنا لم تكن عقولنا لتستطيع وحدها أن تدركها أو تعي تفاصيلها . وهي تتعلق بما وراء الحياة من غيوب .

وقد قلنا : إن العقل المجرد قد يعرف أطرافاً منها بالتأمل والنظر .

ولكن المعصوم قد أعطانا عنها فكرة كاملة ، فسندرسها عن طريقه ، ونؤمن بها تبعاً له ، فهي مما جاء به .

(٩)
الخـــــلود

هذى الحيـــاة . .

قبل أن نأتى إلى الحياة الدنيا ، كم سبقتنا من عصور ؟

و بعد أن نغادر هذه الحياة ، كم ستعقبنا من أجيال ؟

وما نسبة هذا العمر المحدود بين ما سبقه وما لحقه من أزمنة ؟ إنه قليل قليل ! ولـكن من هذا القليل الممنوح لى ولك ، نتـكون الحياة الدنيا ! !

من هذا الظهور المحفوف بالفناء قبله والخفاء بعده تعمر الأرض !

فى طريق الحياة الممتد يجرى جيل من البشر وما يزال يجرى ، حتى إذا نال منه الـكلال وأدركه الإعياء مات .

وقبل أن يخلو الطريق من الأنفاس اللاهثة والأقدام اللاغبة ينبت جيل آخر يستأنف السعى و يمثل الدور نفسه .

و ينسحب الجيل المنهوك ، فيلَفُّ فى الأكفان و يوارى فى التراب .

و ينفرد الجيل الجديد بالسَّعى ، حتى إذا لحقه ما أصـاب خلفه ، سَحِبَ — كذلك — وجىء بآخرين . وهكذا دواليك .

هذه هى مواكب الحياة . . . عمل متواصل من أعمار منقطعة !

والعجيب أن هذا العمل الموصول يسخِّر القائمين به . فهم لا يحسبون أنفسهم حلقة من سلسلة منقطعة متراخية مع الأمس ، المتطاولة مع الغد .

بل إن الواحد منهم يخدعه الغرور ، فما يفـكر أنه جديد على الدنيا ، وأنه — كما ظهر فيها فجأة — سيختفى فجأة .

كلا بل الغرور يخيِّل إليه أنه كان من الأزل وسيبقى إلى الأبد ! !

فإذا جاءه الموت دهش لمقدمه كأن الموت حَدَث غريب .

غير أن الدهشة لا تدفع اليقين وكذلك تترك الإنسان الحياة الدنيا .

من الخير للمرء — وهو فى صحته البدنية و يقظته الذهنية — أن يعرف طبيعة الدار التى يعيش فيها ، و ... على ... عالية على دعائم منهارة .

لكن ما معنى ذلك ؟

أهذا فقط كل حظ الإنسان من الوجود ؟

ونبادر إلى الإجابة الحاسمة : لا .

لئن كانت الحياة على ظهر الأرض بهذه المثابة ، فالحياة التى تليها هى الأسمى والحظ الأوفر .

ولو كان العيش فى هذه الدنيا هو كل شىء ، لكان الانتحار العاجل أولى بالناس أجمعين .

إن الدار الآخرة هى الحيوان ، والاستعداد لها هو وظيفة العقلاء فى هذه الفترة الضيقة من آجالهم .

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّـةٌ يَحْسَـبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لٍ إِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ

والحصيف هو الذى يوزع اهتمامه على كلتا الدارين بقدر ما تستحقانه ، فيجعل عمله لهذه ، بقدر مقامه فيها ، وعمله لتلك بقدر بقائه فيها . .

ما وراء الحياة الدنيا

يعلم الناس جميعاً أن الموت نهاية حاسمة لكل حى ، ومصير لا بد أن ترده كل نفس .

ولكن أ كثرهم يأخذ عن الموت فكرة غامضة ، ويكوّن له صورة مغلوطة مشوهة .

فهم يظنونه ختاماً ينهي الحياة ، وابتداء لحالة أخرى لا شعور فيها ولا إحساس معها .

يتناول الإنسان منها ما ينال الدواب النافقة ، تحت أكوام التراب ، أو الأنعام المهضومة في بطون الآكلين ! ثم لا شيء بعد ذلك .

وهذا ضلال بعيد . . فليس الموت فناء ولا شبه فناء .

ربما كان الموت نومة طويلة كما أن النوم الذي نعرفه وفاة قصيرة !

وقد جعل القرآن الموت قسيماً للنوم وجعل الحالتين ، أعراضاً للأنفس لا تؤثر كثيراً فيها .

« اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى[1] » .

ولئن كانت الروح تفارق الجسد إلى حين ، فإن ذلك لا يغير من حقيقة الإنسان شيئاً .

فالجسد كالثوب ، يكتسي الإنسان به ويعرى عنه ، ولا مدخل له في جوهره .

ولا نحور أن نعد الموت إلا انتقالا من مكان إلى مكان لا نقص فيه لدرجة من حقائق الوجود شيئاً ، ولا يخف إحساسه بها ، بل قد يصح ويزيد .

ولو فهمت هذه الحقيقة لما اكترثت للموت . ولما تهيّبت الإقبال عليه ، ولما شعرت بموجب من تردده وموضعه .

(١) الزمر ٤٢

البرزخ

لا يكاد امرؤ يترك دنياه هذه حتى يبدأ حسابه ويظهر ثوابه أو عقابه .

وقد ساق لنا القرآن الكريم طرفاً من أحوال الناس فى هذه المرحلة من حياتهم الآخرة . فهو يقول عن الكفار من آل فرعون :

« النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ[1] » .

ويصف نعيم الشهداء ، وترقّبهم لإخوانهم وأبنائهم كى يقدموا عليهم ويشاركوهم فى السعادة التى غمروا بها :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ . وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[2] » .

وبوادر الشر أو بواكير الخير تظهر فى اللحظة الأخيرة من عمر الإنسان على آخر منازل الدنيا وأول مراتب الآخرة .

فقد جاء فى السنة ، أنه فى نطمين المؤمن حين يحتضر نزول قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ[3] » .

كما أن نذر العقاب الأليم تواجه الفساق والظلمة فى تلك الساعة الحرجة .

« وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو

---

(١) غافر : ٤٦ (٢) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ (٣) فصلت : ٣٠

أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ[1] » .

« وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ . وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[2] » .

وللعصاة من المؤمنين حظهم من المتاعب والآلام جزاء تفريطهم فى الواجب واستهانتهم بالحرام .

وقد جاء : أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على قبر دفن فيه شخصان . فقال :

« يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ . كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ » .

والأدلة على ثواب القبر وعذابه كثيرة . تتضافر على إثبات أن قبل الجنة والنار مقدمات تحفل بالبشرى ، أو تصفح بالإنذار .

وفى الحديث : « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ . إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ . فَيُقَالُ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

* * *

إن الموت — على الحقيقة — طور من الأطوار التى تعرو الحى فى سنيه المختلفة ، كالطفولة والرجولة والكهولة .

إلا أن هذا الطور يتميز بأن الروح فيه أقوى إدراكا وأصدق حسًّا .

(١) الأنعام : ٩٣ (٢) الأنفال : ٥٠ ، ٥١

ولو تصور المقدمون على الانتحار أى حياة يقبلون عليها ، أو أى مرحلة يصيرون إليها ، أفكروا طويلا ، قبل أن يرتكبوا حماقتهم .

إنهم يريدون — بفعلتهم الشنعاء — أن يفروا من الشعور بالضيق ، ومواجهة النتائج المحزنة إلى عالم يحسبونه خاليا من الشعور . . ومن رؤية العواقب المحذورة .

وما دروا أن قوام العالم الجديد الذى يقتحمون أسواره هو الإحساس المضاعف ومجابهة شتى النتائج .

وفكرة الكثيرين عن الموت تغلب عليها الجهالة والكفران .

والقبر — فى نظرهم — مكان يخيم عليه الصمت والظلام ، وتعبث فيه الديدان والحشرات . . فحسب .

ولسنا نتجاهل هذا المنظر الكئيب ؛ ولكننا ننكر أنه النهاية الحاسمة للعواطف الجيّاشة بالخير ، والمشاعر المهتاجة بالشر . وما انبنى على هذه وتلك من حضارات وعمران ، وخصام ووئام .

إن هذا المنظر يخفى وراءه — فى عالم لا ندريه — سهولا فسيحة تحفل بالأزهار والنُّوار ، ونفوح منها العطور المنعشة أعدها الله للمؤمنين الصالحين .

وثَمّ وِهَادٌ أخرى تدع فيها الأنفس الشريرة وتئن تحت وقع المطارق المنهالة والمقاطع المحماة ، أعدها الله للفاسقين عن أمره الظالمين لخلقه .

وقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يُفِيضُ فى شرح الحقائق المتصلة بهذا العالم المُغَيَّب ، حتى ليكاد سامعوه يرون آفاقه رأىَ العين ، الصحو منها والنائم .

وذلك حتى يؤسس فى أفئدتهم يقيناً بأن الموت المرتقب مرحلة تلى هذه الحياة كما تلى الرجولة الطفولة .

و إن وقفة مفاجئة لِوَجِيبِ هذا القلب الدائب الخفقان ، ترمى بالمرء فى أحضان هذا العالم الحق .

و إليك هذا الوصف المفصل لمقدمات اليوم الآخر كما يعرفنا به رسول الله .

إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا و إقبال من الآخرة ، نزل عليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة . حتى يجلسوا منه مد البصر ، ويجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه ، فيقول .

أيتها النفس الطيبة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .

قال : فتخرج . فتسيل كما تسيل القطرة من السقاء ، فيأخذها .

فإذا أخذها ، لم يدعوها فى يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض .

قال : فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ .

فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له .

فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة .

فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض فى جسده .

فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان : من ربك ؟ فيقول : ربى الله فيقولان : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام .

فيقولان : ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله .

فيقولان : ما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله ، وآمنت به وصدقته .

فينادى منادٍ من السماء : أَنْ قَدْ صَدَقَ عبدى . فافرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة .

قال : فيأْتيه من رَوحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مَدَّ بصره .

قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد .

فيقول : من أنت ؟ أفوجهك الوجه الحسن يجىء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح .

فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة ! حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول :

أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سخط من الله وغضب .

فَتَفَرَّقُ فى جسده ، فينزعها كما يُنْزَعُ السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها .

فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح .

ويخرج منها كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها .

فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَإٍ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه الريح الخبيثة ؟ .

فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له .

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ(١) » .

فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين ، فى الأرض السفلى ثم تطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ :

« وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(٢) » .

فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لاأدرى .

قال : فيقولان : مادينك ! فيقول هاه هاه لاأدرى !

قال: فيقولان له: ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لاأدرى

فينادى مناد من السماء : أنْ كذب فافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار .

فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوءك ، هذا يومك الذى كنت توعد .

فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه القبيح يجىء بالشر .

فيقول أنا عملك الخبيث ، فيقول : ربى لا تقم الساعة .

وفى رواية له بمعناه وزاد : فيأتيه آت قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول : أبشر بهوان من الله ، وعذاب مقيم .

فيقول : بشرك الله بالشر ! من أنت ؟

(١) الأعراف : ٤٠ (٢) الحج : ٣١

فيقول : أنا عملك الخبيث ، كنت بطيئاً عن طاعة الله ، سريعاً في معصيته ، فجزاك الله شرًّا .

ثم يُقيَّض له أعمى ، أصم ، أبكم ، في يده مرزبَّة ، لو ضُرِبَ بها جبل كان تراباً ، فيضربه ضربة فيصير تراباً .

ثم يعيده الله كما كان فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحةً يسمعه كل شيء إلا الثقلين .

قال البراء : ثم يفتح له بابٌ من النار ويمهد له من فرش النار .

ونحن لا ندرى عن كنه الجزاء في القبور شيئاً . ولا حدود ما يصيب الأبدان والأرواح منه .

نعم . نحن نوقن بهذا الجزاء .

أما كيف يقع ؟ وأما البحث في التفاصيل الواردة به ؟ وأما التساؤل عن طرائقه بعد بلى اللحم والعظم فهذا ما لا نستطيع الخوض فيه

لأن أمر المادة كأمر الروح غريب . وما يتجلى للناس من خصائص الحياة وأسرارها يوماً بعد يوم ، يجعلنا نصدق ما خبرنا به الوحي ونكل دقائقه للمستقبل ولا نحب أن نرجم فيه بغيب .

عمر الفرد وعمر الدنيا

عندما ينقضى اجل الإنسان من فوق ظهر الأرض ، يسافر إلى الآخرة تاركا خلفه الناس ، يكدحون و يؤملون .

فإلى متى يتصل هذا العمران ، و يبقى بنو آدم يؤدون رسالتهم في هذه الحياة ، و يتخرجون من تجاربها المضنية ، إما إلى الجنة ، و إما إلى النار ؟ ؟

متى يأذن الله بانتهاء عالمنا هذا الذى تتوارث الأجيال أفراحه وأحزانه ، وتزحمه بصراعها الدائم ، تارة على الحق ، وتارات وتارات على الباطل ؟؟ متى ؟

الظاهر من نصوص الدين أن للدنيا نهاية مقررة لا تعدوها .

تنشق بعدها السماء وتنهد الأرض ، وتغيض البحار ، ويهلك الحرث والنسل . وتطوى الصفحة الحافلة بتاريخ رهيب ، من بدء الخلق إلى فنائه .

وكما أن للإنسان عادة — قبل أن يحين أجله — أعراضاً تؤذن بموته من شيخوخة أو مرض أو غيرها . فللإنسانية كلها قبل انتهاء أجلها أعراض . إذا ظهرت عليها دل ذلك على أن عمرها أوشك ومصيرها اقترب .

* * *

وعندى أن السر الأول لوجود الحياة وبقائها هو وجود أناس — قلوا أو كثروا — يعرفون ربهم ويؤدون واجبه حقاً . . .

فإذا خلت الدنيا من هؤلاء . وبدا أن مثلهم لن يتمخض عنه المجتمع البشرى فى طول البلاد وعرضها ، فمعنى ذلك أن الدنيا أفلست وحقت عليها الكلمة . وأن فض هذه السوق أصبح محتوماً ! !

وعلامات الساعة التى ذكرها القرآن الكريم ، وأفاضت فيها السنة تشير إلى هذا فى جلاء . .

إن الرسل الكرام بذلوا الجهود الجبارة فى محاربة الجاهلية ، وقيادة الناس إلى الله . وقد استجابت لهم أمة من الناس ، ومشت حيناً من الدهر تحت لوائهم وستظل تمشى إلى ما شاء الله .

فإذا أسكتت ألسنتهم ، ونكس لواؤهم ، وطمست شرائعهم ، وهان على الناس أمرهم . ودمت خضرات المخنفة على إنكار وحيهم وإقصاء

هَدْيِهم . . . ثم شاع الفساد واستبيحت الحرمات وغلقت المعابد ونسى الله — جل وعلا — وماج الناس بعضهم فى بعض . . . يومئذ يستحصد هذا العمران كله ، ويقترب تنكس حسه .

أجل . . . قد تقدم البشرية خطوات رحبة إلى الأمام فى ميادين العلم ، حتى تسخر كل شىء لخدمة الإنسان وترفيه عيشه .

بَيْدَ أن الإنسان عندما يصل إلى هذه الدرجة من الارتقاء المادى ، يكون قد وصل إلى الحضيض من الناحية الأدبية .

سيطغى ، ويقتل ، ويعربد ، ويتألّه :

« حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[1] » .

وإليك من حكم النبوة ما يدلك على أن الساعة تقوم عقب فساد عريض لا ينتظر لظلامه فجر !

وفى فترة تخلد الدنيا فيها إلى أهوائها ، فلا يتوقع لها طُهْر أو ارتقاء .

عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ : الله الله » .

وعن حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدُ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ بْنُ لُكَعٍ » .

ويبلغ من امحاء معالم الدين أن تعود الوثنية إلى الجزيرة مرة أخرى : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ إِلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِى الخلصة » .

(١) يونس : ٢٤

وهو شيء كان العرب يعدونه في الجاهلية الأولى.

وتتهاوى الناس على اللذائذ يطلبونها من كل سبيل ويدفعون ثمنها شرفهم ومروءتهم:

«تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا».

ويهيج بركان الحروب في الأرض فيتبعه سقوط الضمائر وخراب الذمم:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْهَرْجُ! قالوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قال: الْقَتْلُ الْقَتْلُ!»

وتُمْحَقُ الْبَرَكَةُ مِنَ الْأَعْمَارِ — وهي مهما طالت — قَصِيرَةٌ تَمُرُّ مَا يَكَادُ أَحَدٌ يَشْعُرُ بِهَا:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَالْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَالْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَالسَّاعَةُ كَالضَّرَمَةِ مِنَ النَّارِ» — كاشتعال عود من الثقاب.

والأحاديث متكاثرة على أن الساعة تقوم على أشرار الناس.

ولا ندهش حين نسوق مذهب بعض الواهمين، كلما رأوا منكراً فشا وشراً كثر على كل وجه: قامت الساعة!! إنها سقوط حتماً

ينبغي أن نرقب معها الأسوأ غير مستبعد:

بيد أن الأرض — من قديم — مسرح للفساد وسفك الدماء

ومعترك بين خير وشر نشب من قرون سحيقة، والأيام بينهما دول.

ونهاية خير حتمية، لا يعني بعض الله هذا المجتمع الناجح

ولكن الذي نزعمه هنا: أن الإنسانية إبان وجودها على ظهر الأرض قد يرجى منها الخير ما ثبتت حضارة أو أمة أو طائفة تستقيم على الطريق وتسبح بحمد الله وقد يغتفر شر كثير في جوار هذا الخير.

فإذا انقطع الأمل من رشد الناس، وأطبق أهل الأرض على العبث فيها جيلا بعد جيل، استؤصلت شأفتهم، ثم جمع الأولون والآخرون أمام الله لمحاكمة عامة شاملة:

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا »[1].

من أشراط الساعة

على أن هناك علامات حاسمة تسبق الختام الأخير لهذا العالم.

نذكر — في إيجاز — بعضها، حتى لا يستطرد بنا الحديث.

منها رجوع عيسى ابن مريم إلى الحياة الدنيا مرة أخرى. ولعله خص بذلك من بين الأنبياء، لأن الخرافة التي تعلقت بشخصه ملأت الأرجاء وقامت باسمها دول قوية. فليكذب الرجل بنفسه ما أشاع الخلق عن ألوهيته وهو ليس إلا عبداً لله. ولما كانت الحياة وحدة متماسكة فنزوله في آخر الزمن كاف في الدلالة على هذا المعنى، وإن جاء عقب ضلال طويل!!

ومن علامات الساعة ظهور الدجال، وهو رجل أعور داهية يبدو من صفاته المذكورة له أنه ماهر في علوم الطبيعة. وقد يوفق إلى طائفة من المخترعات

(١) الكهف ٧، ٨

الرائعة ، و يؤتى القدرة على خداع العامة بما يملك من وسائل لبست بأيديهم . وهذا الأعور الدجال من عافرة اليهود يَدَّعِي الألوهية . وقد حذرتنا السُّنَّة من الاستماع له . وسيطوف فى البلاد ، يدعو لنفسه ، حتى ُيقتلَ آخر الأمر . ومن علامات الساعة شروق الشمس من حيث تغرب . وهذا الانقلاب الفلكى ، إيذان بأن النظام الدقيق الذى تتماسك به أجرام السماء يوشك أن يختل بإذن صاحبه ، ثم تنكدر النجوم ، وتسير الجبال ، وتحشر الوحوش ! !

ومن علامات الساعة خروج الدابة وعندى أن هذه العلامة نوع من العذاب والتقريع لبنى آدم الذين جهلوا ربهم . وجحدوا حقه ، مع ما آتاهم من عقل وفكر . فلا بأس أن تخرج سلالة من البغال أو الحمير لتضرب بحوافرها جباه الساسة والقادة تقول لهم : أما لكم رأى يصلكم بالله رب العالمين ؟ أين الذكاء والفهم ؟ كيف تلحدون ؟

« وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ(١) » .

البعث والجزاء

سننتهى من هذه الدنيا . وستنتهى هذه الدنيا بعدنا . . . ثم ماذا ؟

نحب أن نعود أولا و نؤكد ما قلناه قبلا : إن الله سبحانه وتعالى ماجد عظيم ، وإن كماله الأسمى لا ترقى إلى كنهه العقول . وأنه أوجد البشر فضلا وأعطاهم — على ظهر هذا الكوكب الضيق — فرصة خطيرة لو أحسنوا استغلالها . وأنه سبحانه وعد أن يمنح الخلود فى جواره الكريم إلا من

(١) النمل ٨٢

نتهزون هذه الفرصة . فترشحهم أعمالهم وأحوالهم للصعود إلى الرفيق الأعلى !

إن الله المجيد لا يقبل في جواره الأوغاد .

وإن الله لعليم لا يقبل إلى جواره الجهلة .

إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

إن الله نظيف يحب النظافة

إن السفلة الذين التصقوا بالتراب وعاشوا له ، لن يرتفعوا عنه .

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ[1] » .

من الخير للإنسان أن يعلم علم اليقين ، أن عمره المحدود في هذه الدنيا ، إن لم يكن وسيلة للتكمل والترقي ، فلن يشرق غده ولن يخرج منه بطائل .

فالجنة التي وعد الله بها المتقين لا تتسع لخسيس ولا مهين . وإذا لم يكن الإنسان على حظ من الكمال والفضيلة ، فلن يجد بها منزلا .

لما استكبر بها إبليس طرد منها وقال الله له : « فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا . فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ[2] » .

ولما غفل آدم عن حق ربه ، ووَهنت في الخير عزيمته أُخرِجَ منها وزوجه وعرفهما الله عز وجل وعرّف ذريتهما من بعدهما ، أن للجنة مستوى خاصاً من الكمال ، من فَقَدَهُ لم يبق لها أهلا .

فمن نقصت في نفسه أثارة من شرٍّ ، أدركه الموت ولم يتطهر منها حبس على شواطىء الآخرة ، ولم يدخل جنة الله وهو على تلك الحال .

(١) الأعراف : ٤٠ (٢) الأعراف : ١٣

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَخْلُص الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ » .

أرأيتَ ؟ لا بد من تهذيب وتنقية !

فمن لم يستو وينضج ويَطِبْ فى الدنيا انتظرته جهنم لتكمل له ما نقصه ، وتعوض ما فاته .

« أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ . كَلَّا . إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ[1] » .

لقد خلق الإنسان من أصول ، فيها كدر وكثافة وهوان . من حمأ مسنون ونطفة أمشاج . وأمامه فى الدنيا فسحة من الأجل ، ينبغى أن يستغلها فى ترشيح نفسه للملأ الأعلى فيقهر أهواءه ، ويمسح أكداره ، ويرقق من طينته ، ويسمو بطبيعته ، ويتعهد روحه بالصقل والتهذيب ، حتى يطيب ويطهر . فإذا جاءته رسل ربه تنقله إلى الدار الآخرة ، وصدق فيه قول الله . « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ : سَلَامٌ عَلَيْكُمُ . ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[2] » .

إن هناك أقواماً تشم فى أعمالهم نتن الطين الذى خلقوا منه ، وتلمح فى أخلاقهم كدره وسواده ! هؤلاء ليسوا أصحاب الجنة مهما زعموا وأمّلوا ! !

* * *

يعقد الإسلام صلة وثيقة بين فعل الخير فى الدنيا وما يعقبه من سعادة فى الآخرة ، كما يعقد الصلة نفسها بين اقتراف الشرور ، واستحقاق العذاب الأليم .

(١) المعارج : ٣٨ ، ٣٩ (٢) النحل : ٣٢

وقد يحاول بعض الناس بأساليب ملتوية وعلل مكذوبة أن يُشَكِّكَ في هذه الصلات القائمة، ولكن هيهات!!

فالمجرم لا بد أن يلقى عقوبته، وأن يواجه الجزاء من جنس العمل.

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »[1].

وعندما يتلاوم العصاة يوم القيامة، ويحاول كل فريق منهم إلقاء التبعة على الآخر ليتنصل من الذنب، ويفر من العقاب، عندئذ يقرع آذانهم صوت الحق.

« قَالَ: لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ. مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »[2].

والمحسن لا يتخلف عنه الوعد الحق، ولا تنقص مكافأته على صالح عمله ذرة: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ. خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[3].

ونحب أن ننبه إلى تلاعب طائفة من أدعياء العلم بالنصوص الواردة، وخبثهم في فصل العلاقة بين العمل وجزائه، والاحتيال بذلك على تحقير مظهر الخير في العمل الطيب، ومظهر الشر في العمل الفاسد...

والحيلة التي يتوسلون بها إلى ذلك، إيهام الناس أن الجزاء مرتبط بالمشيئة العليا لا بعمل الإنسان.

وأن الفسقة قد ينالهم العفو مهما ارتكبوا، وينشد شاعرهم:

وَإِنِّي - وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ - لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي!!

---

(١) يونس: ٨١، ٨٢ (٢) ق: ٢٨، ٢٩ (٣) لقمان: ٨، ٩

وأنه يجوز أن يدخل القانتون العابدون نار جهنم . . ! ! لأن الله لا يُسأل عما يفعل .

وهذا كلام يخالف الحقائق المقررة فى دين الله .

والغرض منه — كما أسلفنا — إسقاط قيم الأعمال ، فلا يرهب أحد ذنبَ ولا يرجو مؤمن حسنة .

وهذه الفلسفة الحقيرة أدت عملها فى إفساد الأمة وتلويث المجتمع وإهانة الدين وتعاليمه .

والله سبحانه وتعالى يكذب ذلك كله بأسلوب صريح .

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [١] » .

« أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ [٢] » .

إن أولى الألباب يوقنون أن عموم المشيئة لا يعنى التسوية بين خائن وأمين ، وأن جواز العفو لا يعنى إلغاء الشرائع وتعطيل القوانين .

حول شفاعة إمام الأنبياء

يغلط عوام المسلمين بأحاديث واردة فى شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم لبعض العصاة .

(١) الجاثية ٢١ (٢) ص : ٢٨ ، ٢٩

وتعلّق أولئك العوام بأحاديث الشفاعة يُخيّل إليك أن قوانين الجزاء تعطلت ، وأن نيران الجحيم يوشك أن تكون برداً وسلاماً على عصاة المؤمنين !
وكثيرَ ما يفرّط هؤلاء الجهال في الفروض ، ويقعون في أوخم الذنوب ثم يقولون : أمة محمد بخير !
وهذه سفسطة سخيفة .
ومحمد صلى الله عليه وسلم أول من يستنكره ويحارب أصحابه ، وينذرهم بأنهم أصحاب الجحيم .
فأما أن الجزاء حق ، وأنه يتناول الذرة من الخير والشر ، وأنه يعم الناس أجمعين ، فذلك صريح القرآن .
« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[1] » .
والقول بأن قوانين الجزاء توقف بالنسبة لأتباع نبيٍّ مّا سخف فارغ ، وقد كذّب القرآن الكريم في مواضع شتى مزاعم الأولين والآخرين لما جمحت بهم أمانيهم إلى هذا الوهم الباطل .
ولسنا نردّ ما صح من أحاديث الشفاعة ، بل نتنبه في مواضعها التي لا تعدوها ، حتى لا نحرّف الكلم عن مواضعه .
روى الشيخان قال رسول الله « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي . فَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ ، مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا » .
هل معنى هذا الحديث أن الشفاعة التي يرجوها الرسول تنقذ مرتكبي

---

(١) الزلزلة ٧ ، ٨

الفواحش والمناكر ممن ماتوا لا يشركون بالله شيئاً ، دون أن يستوفوا جزاءهم ؟؟؟

إن الرسول نفسه يردّ هذا الزعم .

وقد روى البخاري حديثاً يصف فيه أهوال الحشر وأحوال أهل النار قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه :

«يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَىْ جَهَنَّمَ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلا الرُّسُلُ ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ! قَالَ : فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ اللهُ ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو ، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، أَمَرَ اللهُ الْمَلاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ . فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ ، وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ آثَارَ السُّجُودِ فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدِ امْتَحَشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ . . »

وهذا الحديث يفيد أن من المسلمين الذين يعبدون الله وحده قوماً سيدخلون النار .

وأن هؤلاء ستأكل ملامحهم فلا يعرفون إلا بآثار السجود .

وأن رحمة الله فحسب ، هى التى تدركهم فتنقذهم مما يعانون من بلاء .

ثم تغسل أوضارهم الأولى بدء الحياة فيصبحوا — بعد — خلقاً جديداً يصلح للنعيم والرضوان .

* * *

فليس لمستغفه هذا النطاق الواسع الذى يبرر به الخطّاءون إصرارهم ، وما تفيدهم أمانيهم فيها شيئاً .

وقد بين الله سبحانه أن الشفاعة لا تجدى على كافر ، ولا على فاسق مُثقَلٍ بالخطايا .

قال الله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ، وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ[1] » .

وقال كذلك : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلُ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى[2] » .

والنفس المثقلة بالخطايا — ولو كانت لرجل من المصلين — لا تفوتها جزاؤها كما رأيت فى حديث الرسول ، وهو يصف أمّته عند اجتيازها الصراط .

* * *

والظاهر أن الشفاعة التى يرجوها النبى الكريم إنما تدرك صنفاً من الناس ، تأرجحت موازين الحق والباطل فى أعماله فهو بين السقوط والنجاح .

ونحن فى حياتنا ننظر إلى التلامذة الذين يقتربون من النهاية الصغرى للنجاح نظرة رأفة . ونميل إلى منحهم درجة أو درجتين جبراً لنقصهم .

(١) البقرة : ١٢٣ (٢) فاطر : ١٨

أما الذين يبتعدون عن المستوى الأدنى للنجاح مسافة بعيدة فإننا نحكم بسقوطهم فوراً .

فلعل الشفاعة المنسوبة للرسول الكريم تنقذ أمثال هؤلاء المقاربين للنجاة . . .

وبهذا التفسير يتم الجمع بين النصوص .

* * *

وقد تكون المقصود من هذه الشفاعة التنويه بمكانة النبيّ صلوات الله وسلامه عليه والإشادة بمنزلته الكبرى عند الله . . .

ومثال ذلك فى مجتمعنا أنه فى مناسبات خاصة — كعيد ميلاد الملك أو جلوسه — يفرج عن طوائف من المسجونين قضوا أغلب المدد المحكوم عليهم بها ويراد إشعارهم بفضل المناسبة التى سنسوق لهم العفو والحرية .

وهذه الحرية الممنوحة بالعفو العام ، لا تخدش أصل العقوبة المقررة .

ولا يفهم منها أنه لا ضرورة لسن القوانين و بناء المحاكم وتعيين القضاة ، كما يريد أن يفهم ذلك عوام المسلمين من أحاديث الشفاعة المنسوبة لنبيهم .

والتى تشير إلى أن الله قد يجيب دعاء نبيه وهو جاث بين يدى ربه يسأل الصفح عن الأمم الغفيرة من الأولين والآخرين التى أدركها حر الموقف المعنت وأهب عصاتها شواظ من النار المستعرة ، فهى تضرع إلى الله أن يرفع غضبه وتتردد على أنبيائه جميعاً كيما يشاركوهم الرجاء والدعاء .

على أنه مهما بلغت منزلة عبد عند الله فلن يتجاوز فى الله حد الملق والزلفى لمولاه ، وما كان لنبيّ أن يفرض رأياً أو يقرر حكماً :

« وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ

قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا : الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ »[١] .

« يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا »[٢] .

فلا كلام إلا بإذن . ولا كلام إلا صواب . ومرد الأمر لله وحده .

وإذ كان من الناس من يقترف الموبقات المهلكة اعتماد على شفاعة موهومة فليذكر قول الحق فى أهل النار :

« مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ . فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ[٣] » .

ونحن بعد هذه المقدمات الواجبة نروى حديث الشفاعة العظمى معتقدين أن قارئه لن يتجاوز به حدوده .

عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ — وفى رواية — فَيُلْهَمُونَ لِذَلِكَ . فَيَقُولُونَ : لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا . فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ . اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا . فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا ، وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ . فَيَأْتُونَ نُوحًا . فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ

(١) سبأ ٢٣ (٢) النبأ : ٣٨ (٣) المدثر ٤٢ — ٤٨

فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا ، وَلَـكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلاً فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ ، فيقول : لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا وَلَـكِنِ ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ . قال : فَيَأْتُونَ مُوسَى ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ . وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا ، وَلَـكِنِ ائْتُوا عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ . فَيَأْتُونَ عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ وَلَـكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَبْدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ .قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي — تَعَالَى — فَيُؤْذَنُ لِي ، فَإِذَا أَنَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا ، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ . فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، قُلْ تُسْمَعْ . سَلْ تُعْطَهُ ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ . فَأَرْفَعُ رَأْسِي ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبِّي ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ . ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي . ثُمَّ يُقَالُ لِي : ارْفَعْ يَا مُحَمَّدُ رَأْسَكَ ، قُلْ تُسْمَعْ . سَلْ تُعْطَهْ ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ . فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبِّي . ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ . قال :—وَلَا أَدْرِي فِي الثالثة أو في الرابعة—قَالَ : فَأَقُولُ : يَارَبِّ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ (أي من وجب عليه الخلود) .

إن أتباع الدين يجب أن يعرفوا أن الحساب الإلهي لا يُغْفِلُ الذرة من الخير أو الشر . وأن هذه الدقة تنفي كل تصرف ينطوي على الفوضى وكيل الأجزاء جزافًا .

وقد ندد القرآن الكريم باليهود ، لما سرت بينهم هذه الآراء الغريبة حتى ظن عامتهم أن الجنة حكر لهم ولذرياتهم — لأمر ما — فأقبلوا على ملذات العيش الأدنى ينتهبونها ويقولون — فى يقين — سيغفر لنا ! !

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ، يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ : سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ؟ ؟ — وَدَرَسُوا مَا فِيهِ — وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[1] » .

والمؤسف أن هذا القطع بين العمل والجزاء ، رسب فى أوهام العامة فأساءوا به إلى أنفسهم وإلى دينهم . ثم إن عوج سلوك المنسوبين إلى الدين وقلة فقههم ، وسوء ذوقهم . مكّن الإلحاد فى الأرض ، ورفع الثقة من الأديان وممثليها جملة .

والعجب للمسلمين ، يصابون بهذه اللوثة وهم يقرأون قول الله :

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ . مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[2] » .

* * *

الجزاء حق ، ولقد أكثر القرآن من التذكير ومن سوق النذير بعد النذير لأن أكثر الناس يذهلهم ما أمامهم عما وراءهم .

بل ربما أنكروه وسخروا منه غير عابئين بهذا الغد الزاحف .

ولو عقلوا لعرفوا أن الآخرة هى المستقبل الذى يجب على كل راشد أن

(١) الأعراف : ١٦٩ (٢) النساء : ١٢٣

يوفر فيه أسباب سعادته ، ، وأن يجعل حاضره من الدنيا تمهيداً له ، وأن يجعل سعيه فى حياته غراساً لا تنتظر ثمراته القريبة بقدر ما تؤمل عنـد الله عواقبه المذخورة .

إن نتائج أعمالنا فى الدنيا خطيرة جداً .

سنقضى سنوات احتواها كتاب مؤجل ، ثم تصير الدنيا — بعد أن نتركها كما كانت قبل أن نطرقها — صفراً ، إلا مما تَزَوَّدْنَا به منها .

ولو كان أكثر الناس وطيد الرجاء فى حياة مقبلة ما أرخص عمره ، وما احتسب وقته أهون ما لديه من متاع :

« ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَة ، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ .

فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدَّارِ الْمُقْبِلَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدَّارِ الْمُدْبِرَةِ ، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمل » .

منكرو البعث وسخف مزاعمهم

من العصور الخالية وأقطار الأرض منكوبة بصنف من الناس ، يظنون أنهم مربوطون بأعباء الحياة كما تربط الحمير بعربات القمامة ، تظل تدور بها حتى يغلبها الإعياء وتدركها الشيخوخة فتموت حتف أنفها ، أو يطلق عليها الرصاص . . . ثم لا شىء ! .

يقولون : إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر . .

وهؤلاء كثيرا ما يشغبون على المؤمنين ويجادلونهم بالباطل ويحاولون توكيدَ رَأْيِهِم سنتهم بالإصرار والحلف ! الحلف بما لا يؤمنون ! .

« وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ . بَلَى . وَعْدًا عَلَيْهِ

حَقٌّ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ . إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١) » .

ومما يحفظ للمعرى فى ترجيح حياة المصدق بالآخرة ، وتقبيح حياة الإلحاد وما يكسفه من فساد :

قَالَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلَاهُمَا	لَا تُحْشَرُ الْأَجْسَادُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا
إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ	أَوْ صَحَّ قَوْلِي ، فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا !
طَهَّرْتُ ثَوْبِي لِلصَّلَاةِ ، وَقَبْلَهُ	طُهْرٌ ، فَأَيْنَ الطُّهْرُ مِنْ جَسَدَيْكُمَا ؟
وَذَكَرْتُ رَبِّي فِي الضَّمَائِرِ مُؤْنِسٌ	خَلَدِي بِذَاكَ . فَأَوْحَشَ خَلَدَيْكُمَا
وَبَكَرْتُ فِي الْبَرْدَيْنِ أَبْغِي رَحْمَةً	مِنْهُ ، وَلَا تَرْعَانِ بِرْدَيْكُمَا !
إِنْ لَمْ تَعُدْ بِيَدِي مَنَافِعُ بِالَّذِي	آتِي . فَهَلْ مِنْ عَائِدٍ بِيَدَيْكُمَا ؟
بُرْدُ التُّقَى وَإِنْ تَهَلْهَلَ نَسْجُهُ	خَيْرٌ بِعِلْمِ اللهِ مِنْ بُرْدَيْكُمَا !

* * *

وهذا الكلام من المعرى يصف من الموضوع ناحية جانبية فقط .

فإن الدين يحفظ القلوب أن تمرض ، ويصون الأعراض أن تخدش .

بل يقى الأبدان — بنسكه النظيف — عوادىَ شتى تنمحص عنها الشهوات المنطلقة والأهواء العاصفة .

لكن هذه الثمار الجميلة ليست الدليل الفذّ .

ويبدو أنها ذكرت فقط ، إغلاقاً لباب الجدل مع السفهاء .

---

(١) النحل : ٣٨ — ٤٠

رُوِىَ أن واحداً من أولئك المنكرين جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم بعظم بالٍ وعرضه عليه ، يحسب المغفل أنه سيُفحمهُ إذ يريه العظم ثم يتساءل كيف يتحول هذا إلى بشر سوىّ ؟ .

« وضربَ لنا مثلًا — ونَسِىَ خَلقَه — [1]» .

وهذا الاعتراض صَفعَةٌ للسائل المستبعد ، تردُّه إلى مكانته التى يتطاول فوقها .

« قَالَ مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهاَ الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . . . أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى . وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ[2]» .

نعم يحييها المبدع المنفرد فى شئون الخلق والإيجاد والتصوير . . .

ودلائل البعث ترجع — فى جملتها — إلى لفت أنظار الناس نحو حقائق بدهية مسلّمة .فالذى بدأ الخلق يستطيع — إذا أفناه — أن يعيده .

« وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ؟ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً[3]» .

وهذا الخلق المعاد نكرر تحت أعيننا صور شتى له كل يوم ، بل كل لحظة .

فالرجل من حيث لا يشعر تصنع غدده الجنسية ألوف الألوف من الحيوانات المنوية . فى واحد منها فقط أساس كامل لبشر كامل .

ولعل هذه الكثرة فى إيجاد أصول الحياة يُقصد بها إلى الدلالة على أن الموجد على درجة من الغنى فى خلق أسباب الحياة ، تجعل إنشاء الناس أمراً تافهاً بالنسبة إلى قدرته .

(١) و(٢) يس : ٧٨ — ٨١ (٣) مريم ٦٦ ، ٦٧

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ؟ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ[1] ؟ » .

وعن أبي رزين العقيلي : قلت يا رسول الله : « كَيْفَ يُعِيدُ اللهُ الْخَلْقَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ ؟ قال : أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ جَدْبًا ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا ؟ قال نعم : قَالَ : فَتِلْكَ آيَةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى ! »

والواقع أن الزروع التى تكسو وجه الأرض ، وتمشى فيها بالحياة والنماء ، ليست مما تصح الغفلة عن دلالته .

إن الفلاح يستودع ظلمات التراب حبة واحدة ، أو ساقاً واحداً ، فإذا بحقله يتحول — باسم الله — إلى جنان يانعة وثمار شهية وحصاد ميمون . .

كيف تحوّل الكدر والقذر والطين إلى ثمار وأغصان وريّاحين ؟ !

« وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ[2] » .

والمادة الميتة تتحوّل — فى كل غذاء نتناوله — إلى خلايا حيّة فى جسومنا ، يسرى فيها الشعور ، وتنتفض بالحركة .

فما معنى استنكار ما يقع شبيهه بيننا أبداً ؟ هل النشور إلا هذا ؟

ثم ما ظن الإنسان بنفسه ؟

---

(١) الواقعة ٥٨ — ٦٢ (٢) الحج : ٥ — ٨

إن الأرض ومَن عليها خَلْقٌ صغير متواضع بالنسبة إلى الوجود الضخم الذى يزحم الفضاء البعيد ويزخر به الملكوت الرّحيب . وشأن الناس إلى جانب العوالم الأخرى قليل .

« لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[١] » .

فكيف يُستكثر على مَن يقيم قصراً منيف الشرفات ، سامق العُمد أن يبنى كوخاً تافهاً بعد هدمه ؟ .

إن البعث عقيدة فوق الشبهات ، فلنتهيأ له بالزاد الطيب ، من الهدى والتقى والعفاف .

خطب النبى صلى الله عليه وسلم أول بعثه فقال : « إنّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَاللهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعاً مَا كَذَبْتُكُمْ ، وَلَوْ غَشَشْتُ النَّاسَ جَمِيعاً مَا غَشَشْتُكُمْ . وَاللهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ ، وَلَتُجْزَوُنَّ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَاناً ، وَبِالسُّوءِ سُوءًا . وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا ، أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا » .

وإذا طلعت عليك شمس يوم من أيام الدنيا بعد يوم مستغرق . فاذكر أن هناك يقظة ، سوف تعقب الهجعة المؤقتة فى القبر ، يساق بعدها أهل الشر إلى سقر ، ويُسَاق أهل الخير إلى « مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ[٢] » .

(١) غافر : ٥٧ (٢) القمر : ٥٥

فهرس

	صفحة
كلمة الناشر	٣
مقدمة	٧
الحقيقة الأولى	١٥
الله — وجوده	١٦
عقيدة الألوهية	٢٢
لا ريب فى وجود الله	٢٩
لماذا كفروا ؟	٣١
هو الأول	٣٥
والآخر	٣٧
حاجة العالم إلى الله	٣٨
ليس كمثله شىء	٤٠
ما نعلم وما لا نعلم	٤٣
الغنى المطلق	٤٧
الوحدة المطلقة	٤٩
إنما الله إله واحد	٥٠
عيسى ابن مريم	٥١
مغالطة	٥٤
عرض واقعى وجدل نظرى	٥٧
إخلاص التوحيد	٥٩
مقارنات بين الشركاء والعبيد	٦٢
توحيد العامة	٦٧
حول توحيد العامة	٧٤
الكمال الأعلى	٨٥
القدرة	٨٦
الإرادة	٨٩
الحكمة	٩١
الحياة	٩٣
العلم	٩٤
السمع والبصر	٩٦
الكلام	٩٩
أنت أنت الله	١٠١
القضاء والقدر	١٠٥
الإيمان بالقضاء والقدر	١٠٦
نحن مجبورون فى هذا	١٠٧
هنا إرادتنا حرة	١٠٩
معنى يضل من يشاء	١١٢
كذب على دين الله	١١٤
الاعتذار بالأقدار	١١٥

	صفحة
إجابة ساخرة . . .	١٢٦
على هامش الأقدار .	١٢٨
العمل أساس الإيمان .	١٣٥
الإيمان والعمل . .	١٣٩
لا يمهون الكتاب .	١٤٤
فى ميدان التربية . .	١٥٠
الخطيئة و متاب	١٥٧
الإيمان والخطيئة . .	١٥٨
بين النوبة والعصمة .	١٦٥
من مخلفات حرب الجدل	١٦٨
هل العصبية مرض .	١٧٧
خلافات لا مبرر لها .	١٨٩
النبوات	١٩٥
بين النبوة والفلسفة .	١٩٦
الوحى	١٩٨
العصمة . .	٢٠٤
المعجزة	٢٠٥
المعجزة بين الرسالة الخاتمة والأولى . .	٢٠٩
مقترحات كافرة . .	٢١٠
حقيقة الإعجاز المادى	٢١٢
النبى الإنسان .	٢١٥
بين النبوة والعبقرية .	٢١٦
العباقرة	٢١٧
الأنبياء . .	٢١٩
مسك الختام . .	٢٢١
موئل البطولات . .	٢٢٣
الوصف بالعبقرية .	٢٢٥
الإيمان بالنبوات كلها	٢٢٦
الخلود	٢٣١
هذى الحياة . .	٢٣٢
ما وراء الحياة .	٢٣٣
البرزخ	٢٣٥
عمر الفرد وعمر الدنيا	٢٤١
أشراط الساعة . .	٢٤٤
البعث والجزاء . .	٢٤٥
حول شفاعة إمام الأنبياء	٢٥٠
منكرو البعث . .	٢٥٨



المؤلف

١ — الإسلام والأوضاع الاقتصادية

٢ — « والمناهج الاشتراكية

٣ — « المفترى عليه . .

٤ — « والاستبداد السياسي .

٥ — تأملات في الدين والحياة

٦ — من هنا نعلم

٧ — تعصب وتسامح بين المسيحية والإسلام .

٨ — عقيدة المسلم .

٩ — خلق المسلم

١٠ — فقه السيرة

١١ — في موكب الدعوة

١٢ — من معالم الحق

١٣ — ليس من الإسلام .

١٤ — ظلام من الغرب

تحت الطبع

١ — [illegible]

٢ — [illegible]

[illegible]